



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

كلية الأدب العربي والفنون

قسم الأدب العربي

فن الترسل في الأدب الأندلسي رسالة التوابع والزوابع نموذجا

مذكرة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي (تخصص أدب وحضارة عربية)

إعداد الطالبة:

قاني جهيدة

إشراف الدكتور:

الشارف لطروش

السنة الجامعية:2015/2014



أهدي ثمرة جهدي إلى أعز ما أملك في دنياي والديا إلى من كافح دوما دون أن يملا أو يكلا من أجل سعادتنا إلى سند ظهري ونعمي وبصري ودقي قلبي

أبي العزيز حفظه الله

وإلى أغلى من اللؤلؤ والمرجان إلى من غمرتني بالحنان والتي سهرت علي الليالي من أجل تربيتي.

أمي الحنونة حفظها الله

إلى من اتخذت من حنايا ضلوعها سريرا وكانت سندي الأكبر أختي الغالية فاطمة إلى من تربيت معهم في حضن واحد وتلهفوا بشوق لنجاحي إلى إخواني الأحباء " كمطيب– محمد– حمزة" و "ميلودية- حورية "

إلى كل زملائي وزميلاتي في الدراسة ، وأيضا إلى كل من وسعه قلبي ولم تسعه هذه الورقة إلى كل من اجتهد في حمل مشعل العلم، ولا أنسى بذلك أن أتوجه بإهدائي إلى أعز صديقاتي والحبيبات على قلبي

سميرة ، حياة ، زاهية ، نوال ، أمينة ، عزيزة ، فتيسعاد".حسيبة،سارة، سامية.

كما أهدي هذه المذكرة إلى كل الباحثين ولذلك آمل من اللّه عز وجل من أن يستفيد منها كل من يطلع عليها.

جهيدة

مقدمة :

الحمد لله الذي أحسن خلق كل شيء،وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة ماء وفضله على سائر المخلوقات بما أتاه من حاسة العقل وبيان اللسان فرصة ولا أعز فرصة من هذه التي يتاح من خلالها المجال للمرء أن يترك بصماته على صفحات بحث كهذا الذي بين أيدينا لعله يعم بالنفع على متطلعيه.

أما بعد

يدل تراثنا النثري على أن الأدب العربي ثري خصب بفنونه القولية المختلفة كما يدل على تاريخ أدبي حافل كانت بداياته منذ العصور الأولى المعروفة قبل الإسلام وظلت مراحل تطوره الدائم تتابع وتتوالى تتأثر كل منها بما يسبقها وقد نالت الفنون النثرية حظا وافرا من اهتمام الرواة والشراح والنقاد واقتصر هذا الاهتمام بالنثر فيما صنفه القدماء ، حيث نجد بأن النثر الأندلسي قد تأثر بالنثر المشرقي بما فيه من فنون نثرية ضخمة تجلب الأنظار وتلفت الانتباه، ونظرا للأهمية هذه الفنون النثرية فقد قمت بتسليط الضوء على فن من هذه الفنون التي تأثر بها الأندلسيون ألا وهو : "فن الترسل في الأدب الأندلسي" ،ومن هنا نطرح الإشكال التالي: **ما المقصود بفن الترسل ؟وهل حظي بعناية العلماء والنقاد؟وما أنواع الرسائل التي تضمنها؟**

إن أهم دافع لاختيار هذا الموضوع هوكون هذا الفن لازال محل اهتمام ودراسة من قبل النقاد، حيث دفعني الفضول العلمي لمعرفة خبايا هذا الفن، وما يجول بين طيات النثر الأندلسي من رسائل مختلفة المواضيع والأشكال.

وقد اعتمد المنهج الوصفي والمنهج التاريخي من خلال ذكريلتاريخ تطور أدب الرسائل والإشارة إلى أهم الرسائل وما تحتويه.

قسمت بحثي إلى مقدمة ومدخل وفصلين

تناولت في المدخل مفهوم الرسالة ثم بينت أنواعها وأشكالها .وفي الفصل الأول الذي عنونته بـ:(تطور أدب الرسائل)،تطرقت إلى العناصر الآتية :نشأة أدب الرسائل وخصائصه ـ أهم كتاب الرسائل في الأندلس ـ أبرز الرسائل الأندلسية. وفي الفصل الثاني الذي وسمته بـ:(رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد) تناولت العناصر الآتية:لمحة موجزة عن ابن شهيد ـ التعريف برسالة التوابع والزوابع وأهدافها ـ المكانة الأدبية لرسالة التوابع والزوابع وفي الخاتمة بينت النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها أذكر دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام ليوسف عيد الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي لفوزي عيسى ـ الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق .

ومن الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث المعلومات المتكررة في الكتب وقلة المصادر والمراجع في هذا الموضوع

وأخيرا أتقدم بشكري الجزيل إلى المشرف الأستاذ الشارف لطروش على رعايته وإشرافه على هذا البحث.

المدخل:الرسالة(المفهوم،الأنواع،الشروط)

1- مفهوم الرسالة لغة واصطلاحا

2- أنواع الرسالة وأهميتها

3- شروط الرسالة

I- مفهوم الترسل لغة واصطلاحا:

أ - المعنى اللغوي للترسل:

يعرفه صاحب "نقد النثر" فيقول: " والترسل من تراسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل، ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر وراسل يراسل مراسلة فهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك انه كلام يراسل به من بعد أوأغاب ، فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك" [1]

يلاحظ من تعريف قدامى بن جعفر أنه قد وضع للترسل شروطا هي: التكرارية، الاشتراك في المراسلة، وكذلك غياب احد الطرفين، ومن خلال هذه الشروط تكون الرسالة التي تتمثل في قطعة النثر تطول أو تقصر حسب مشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه.

* أما صاحب لسان العرب فيعرف الترسل قائلا: "إنه من الرسل في الأمور والمنطق كالتمهل والتثبت والترسل في الملاك التوقر ، والتفهم ، والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا"[2]

ب- المعنى الاصطلاحي للترسل:

الترسل فن نثري عرفه الأدب العربي كغيره من الآداب مند القديم، فراح الأدباء من عرب وغيرهم ينوعون في أغراضه ، ويقعدون له القواعد والقوانين، نظرا لحاجتهم لمثل هذا الفن، وفي هذا المجال يقول صاحب "المعجم المفضل في اللغة والآداب" : "فإن بهذا المعنى (التراسل) قديم في آداب الأمم، وقد عني العرب عناية خاصة فنوعوا أغراضه ، وحددوا مناهجه، وميزوا أنواعه ، واستخلصوا قواعده وأصوله" [3]

وبهذا التعريف فان جذور الترسل ضاربة في آداب جميع الأمم، نظرا لحاجة الإنسانإلى المراسلة وتبادل الأفكار والآراء، والأدب العربي كغيره من الآداب قد عرف الترسل مع ثلة من الأدباء الذي عملوا على التنويع في أغراضه ، وتقعيد قواعده وتميز أنواعه.

---

(1)- أبو الفرج قدامى بن جعفر الكاتب البغدادي، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 1416هـ- 1995م ، ص 95.

(2)- ابن منظور ، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر ، ج 4، ط 2، ص153

(3)- ميشال عاصي، إميل بديع يعقوب، المعجم المفضل في اللغة والآداب ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط 1، 1987/ م1 ،ص 381.

لقد ظهر هذا الفن في المشرق على يد كبار كتاب الأدب المشرقي ، من أمثال الصاحب بن عباد ، بديع الزمان الهمداني، وبن العميد ، وغيرهم من الأدباء المشارقة ، ثم انتقل هذا اللون الأدبي إلى الأندلس ، فظهر جمع من الأدباء الذين كتبوا في هذا اللون مثل: أبي حفص بن برد الأصغرأبي الوليد بن زيدون ، لسان الدين بن الخطيب وأبي عامر ابن شهيد وغيرهم.

وإذا انتقلنا إلى تعريف آخر فإنّ أبو العباس القلقشندي يعرف هذا الفن فيقول على حد تعبيره :" الترسل بمعنى الكتابة الإنشائية ولا سيما الرسمية منها ، أما من حيث وجوده فهو وجد لخدمة المصالح العامة والخاصة للأمة أولأهدافها المتمثلة في المكاتبات والتي تهم الأمور الدينية والدنيوية وهو بهذا له دور عظيم في خدمة الأمة إذ يفيدها إفادة كبيرة وفي شتى المجالات"[1]

ومن هذا الدور العظيم للترسل وإفادته الكبرى للأمة يحتل مكانة بارزة أو الصدارة بالنسبة للأنواع النثرية الأخرى.

وإذا كان الأدب المشرقي قد زخر بالعديد من الرسائل مختلفة الأهداف والمقاصد فإن الأديب الأندلسي قد عمل على محاكاة هذه الرسائل ، والسير نحوها في العديد من الأحيان ، وفي هذا المجال يقول الدكتور مصطفى الشكعة : "ولا تصيب الرسائل الأندلسية تطورا أو تغيرا ، بل تظل مصرة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها وإنما تظل أمينة على متابعة نظائرها في المشرق..." [2]

ولكن الدكتور مصطفى الشكعة قد بالغ في ربط الرسالة الأندلسية بالرسالة المشرقية فجعل من الأندلسية تابعة للمشرقية لكن الأندلسيين نحو منحنى المشارقة في العديد من الجوانب على الرغم من تقليدهم لبعض الرسائل في الأدب المشرقي، إذ أن أدباء الأندلس قد أوتوا موهبة شعرية وذوق أدبيا فاستطاعوا أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم حيث تبدو بعض رسائلهم كأنها شعر منثور.

II- أنواع الرسائل في الأدب الأندلسي:

---

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 9 ، 1999، ص572.

[2]-المرجع نفسه ،ص573

لقد تنوعت الرسائل في الأندلس حسب الموضوعات التي عالجتها ، وحسب ما أراد الأديب الأندلسي أن يوصله إلى مرسله ، لذلك فقد ظهرت العديد من الأنماط التي تعبر عن شخصية الأديب الأندلسي وأفكاره ، وعواطفه وتطلعاته وكذلك واقعه الذي يعيشه ، ونظرا لتنوع هذه الرسائل يتوجب علينا أن نلقي نظرة حول أنواع الرسائل في الأدب الأندلسي إذن ما هي أنواع الرسائل الأندلسية؟

أ ـ الرسائل الديوانية:

من المعلوم أن الديوان وسيلة ظهرت في أواخر العصر الأموي ، وبداية العصر العباسي نتيجة لانتشار الفتوحات واتساعها ، فكانت الحاجة ملحة إلى تكوين مجتمع جديد منظم في شؤونه الدينية والدنيوية ومنه جاءت الرسائل الديوانية التي تصدر عن الملك أو الخليفة إلى عماله أو قادة جيوشه وكذلك إلى أعدائه ويقال لها أيضا "الرسائل السلطانية" وقد كان لكل خليفة أو ملك كاتبه الذي يوليه مهمة الكتابة، ويشترط فمن يكتب للملك أو الخليفة أن يكون من فحول الأدباء والشعراء [1]

لقد ظهر هذا النوع الأدبي في الأندلس نتيجة للمشاحنات الكثيرة والمنازعات ، وكثرة الحوادث التي تتصل بالولاة هذا ما جعل الخلفاء والملوك يتداولونه فيما بينهم ولعل اتصل هذا الغرض الأدبي بالأحداث السياسية المتقلبة هو ما جعله يتصف بالمحدودية الزمنية لأن أحوال السياسة في تغير مستمر ، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد العزيز عتيق عندما قال: " ومع ذلك فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ في إجادته الفنية فإنه لا يخرج عن كونه متصل بحادث أو أمر عارض وقلما يكون له صفة من الدوام التي تهم الناس في كل زمان ومكان"[2]

نستنتج من قول الدكتور عبد العزيز عتيق أن الرسائل الديوانية تتصف بصفة المحدودية الزمنية وليست الديمومة فهي متصلة بالقضايا السياسية التي تتبدل في كل فترة من الزمن ونظرا للمحدودية الزمنية لهذه الرسائل، فإننا للأسف نجد أن الكثير منها قد ضاع في ظل التكتلات السياسية المتقلبة، وبقي القليل الذي حفظته بطون الكتب الأندلسية ، ومن بينها رسالة أبي حفص بن برد الأصغر ، والثانية للسان الدين بن الخطيب.

---

[1]- ينظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ، ص 449..

[2]-المرجع نفسه ، ص 449

*** أنواع الرسائل الديوانية:**

1- رسائل للإنذار والتهديد والتخويف والوعيد:

وترسل للخارجين على الدولة وأحيانا يمزجها كاتبها بالترغيب والمصانعة والاستمالة ونمثل لهذا النوع برسالة "لأبي حفص بن برد الأصغر (ت 438هـ) وهي على لسان من كان يكتب له من العامرين ، وهي وموجهة لقوم طلبوا الأمان من مولاه: " أما بعد فأنكم سألتم الأمان أوان تلمظت السيوف إليكم وحامت المنايا عليكم، وهمت خطائر الخذلان أن تفرج لنا عنكم وأيدي العصيان أن تتحفنا بكم...الخ" [1]

2- رسائل المبايعة:

وهذا النوع يتفنن كاتبه في شروط البيعة، نمثل له برسالة ابن برد الأصغر وهي رسالة مبايعة يقول فيها: " بايع الإمام عبد الله فلان بانشراح صدر وطيب نفس ونصاعة جيب وسلامة غيب لا بيعة إكراه وإجبار على السمع والطاعة...الخ" [2]

الرسائل الإخوانية:

1 - مفهومها:

يعرف أحمد بدوي الرسائل الإخوانية بقوله: " إن الرسائل الإخوانية شعر غنائي منثور ، يجد فيها كاتبها متنفسا حرا عن عواطفه ، لا يقيده فيها وزن ولا قافية وهي اقرب فنون النثر إلى الشعر وهي تعبير عن عاطفة شخصية" [3]

وبهذا تكون الرسائل الإخوانية – حسب هذا التعريف- هي تلك الرسائل التي يتداولها الإخوان والأصدقاء فيتبارون فيها، مظهرين مهارتهم الأدبية وموهبتهم الشعرية معبرين عن عواطفهم أحيانا وأحيانا أخرى يحاولون أن يثبتوا قدرتهم الفنية في الساحة الأدبية وللرسائل الإخوانية قيمة بالغة الأهمية فهي من ناحية تظهر قدرة الأديب على التلاعب باللفظ والمعنى مع قوة السبك وجزالته والاستعانة بالبيان والبديع ، كما أنها من ناحية أخرى

---

[1]-على محمد سلامة ، الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته وأشهر علامة الدار العربية للموسوعات ، ط 1 ، 1989 ، ص 443.

[2]-المرجع نفس، ص 443.

[3]- المرجع السابق، ص 445

تزخر بقيمة كبيرة من حيث ثقافتها واحتوائها على العديد من الأشعار العربية والأندلسية ، وكذلك تضمنها للأمثال وحتى القران الكريم.

وعن قيمة الرسائل الإخوانية يقول الدكتور عبد العزيز عتيق : "وقد اعترف النقاد بقيمة الرسائل الإخوانية ، لاشتراك الكافة في الحاجة إليها، وإذا كان الكاتب ماهرا متمرسا بالكتابة تسهل له فيها ما لا يكاد أن يسهل في الكتب التي لها رسوم وصيغ لا تتغير" [1]

أما إذا أردنا أن نتعرف على أنواع الرسائل الإخوانية في الأدب العربي بصفة عامة ، فإن صاحب كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء قد أوصلها إلى سبعة عشرة نوعا بتنوع الموضوعات وهي : التهاني ، التعازي ، التهادي ، الشفاعات ، التشويق ، الاستزادة، احتطاب المودة ، خطبة النساء، الاستعطاف ، الاعتذار ، الشكوى ، استصاحة الحوائج، الشكر ، العقاب ، السؤال عن حال المريض ، الأخبار والمداعبة

ونظرا لكثرة الموضوعات التي تطرق إليها الأديب الأندلسي في رسائله الإخوانية فقد أدى هذا إلى كثرة وتنوع الرسائل التي تندرج تحت هذا الغرض منها رسالتان لابن زيدون وهما الجدية والهزلية، فعن الجدية يقال : " انه كتبها وهو في غياهب السجن لأبي الحزم بن جهور أمير قرطبة أيام الفتنة يستعطفه فيها ويطلب منه العفو مبرئا نفسه مما لصق بها من التهم وقد حظيت هذه الرسالة بعناية الأدباء والعلماء". [2]

وحسب رأي أن الرسائل الإخوانية لها علاقة بالوجدان ومرتبطة أيضا بالأدبية حيث يذيعها المبدعون إلى أهلهم أو من يماثلهم في المنزلة من الإخوان والنظراء في أي غرض من الأغراض الاجتماعية أو الثقافية في مجلي فني يجلوا عواطفهم وأحاسيسهم.

2- أنواع الرسائل الإخوانية:

الرسائل الإخوانية أنواع شتى أو صلها صاحب كتاب صبح الأعشى سبعة عشرة نوعا كما ذكرت سالفا، ولهذه الموضوعات أيضا تقاليدها التي جرى عليها الكتاب ونص عليها النقاد ، فرسائل الشكر لا يستحب فيه المبالغة والأسباب في الشكر الثناء لان فعل الأباعد الذي صناعتهم التكسب بتفريط الملوك ، ومدح السلاطين وسأورد بعض هذه الأنواع كالتالي:

---

[1]- عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 454.

[2]-علي محمد سلامة ، الأدب العربي في الأندلس تطوره – موضوعاته- وأشهر أعلامه ، ص 443

- **رسائل الاستعطاف[1]:**

يقبح الإكثار من شكاية الحال لما في ذلك من الإضجار والإملال ويجب أن تجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بالجميل.

- **رسائل الاعتذار[2]:**

ينبغي أن تتجنب فيها الإطناب في التماس الأعذار وإمعان الكاتب في تبرئة ساحته من التقصير والإساءة، وعليه أن يورد ما يتوهم انه مقنع في إزالته المكروه، أي يكون اعتذار منطقي وفي محله.

- **رسائل التهادي:**

التهادي أو تبادل الهدايا موضوع آخر من موضوعات الرسائل الإخوانية في نثر ابن أبي خصال وهو ـ سواء أكان النثر أم في الشعر - انعكاس واضح للتطور الحضاري الذي تميز بها المجتمع الأندلسي وهو – من ناحية أخرى- تأكيد على رسوخ أواصر المودة والمحبة بين الكاتب وبين أصدقائه.

- **رسائل التهاني:**

تتنوع الموضوعات التي تتناولها رسائل التهنئة، فمنها ما يتصل بمناسبات اجتماعية سارة كالزواج أو التهنئة بمولود ومنها ما يتصل بمناسبات شخصية كالتهنئة بولاية أو بخطة القضاء وغيره...

- **الرسائل الوصفية:**

وهي التي تعالج موضوعات عديدة كالطبيعة بمظاهرها المختلفة من رياض ومتنزهات وأزهار ونصف البيئة البحرية بما فيها من أنهار وسفن والبيئة الحربية بما فيها من أدوات الحرب والقتال، كما تتسع لتشمل موضوعات وصفية أخرى- كالقلم والكتابة والليل والفراق... وغيرها

وهي من ناحية تتشابه مع القصيدة الوصفية التي تعالج تلك الموضوعات ، وهي – من ناحية أخرى- مجال حقيقي لإظهار قدرة الكاتب على الوصف والتخيل والحكم على براعته في التفنن والتصوير.

[1]-فوزي عيسى، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ، ص 184

[2]- المرجع نفسه ، ص 198

- **رسائل نقدية:**

من الرسائل الهامة في ترسيل ابن أبي الخصال رسالة كتب بها إلى الوزير الكاتب أبي محمد بن القاسم يرد عليه في رسالته التي فضل فيها بديع الزمان الهمداني عن أبي إسحاق الصابي أهميته هذه الرسالة لتتمثل في عدة أمور منها أنها تعكس اهتمام الأندلسيين بمتابعة الحركة الأدبية في المشرق ، كما أنها توضح رأي ابن أبي الخصال في بعض القضايا الأدبية والنقدية التي أثيرت في زمانه [1]

- **الزرزوريات[2]:**

مجموعة من رسائل التفكه والسخرية عرفت طريقها إلى النثر الأندلسي- لأول مرة- في عصر المرابطين وكان أول من كتبها أبو الحسين بن سراج حسبما يفهم مما ذكره الأدباء وهي من ناحية قد نشأ نشأة أندلسية خالصة إذ لا نجد ما يماثلها في النثر المشرقي أي بمعنى أنها توجد فقط في النثر الأندلسي.

- رسائل الدعاية والهزل:

من أطرف ما قدمه النثر الأندلسي من رسائل هو تلك الرسائل التي أخذت التفكه والتندر غاية من غاياتها سعيا إلى الإضحاك والتسلية.

وتعد هذه الرسائل نتاجا طبيعيا للترف الحضاري من ناحية، والطبيعة الشخصية الأندلسية من ناحية أخرى ، فقد مال الأندلسيون إلى المرح وشهروا بالدعابة والمزاح واللهو.

ـ الرسائل العلمية ذات الصيغة الأدبية:

مفهومها:

وهي رسائل يشيد فيها الأديب الأندلسي بمفاخر بلده من ماء، وهواء ، وعلم ، ودين ، وأدب ، وما إلى تنعم بها الأندلس أمام قرائنها من البلدان الأخرى.

---

[1]-فوزي عيسى ، المرجع السابق، ص 198

[2]- سميت بالزرزوريات نسبة الى الزرزور وهو طائر صغير الحجم، يشبه العصفور ، ويتميز بجمال صوته وخفة حركته وذكائه ولكنه يتميز في الوقت نفسه بتهمة الشديد وإفراطه في حب الطعام

وإذا كان الأديب الأندلسي قد عمد للشعر قبل لكي يبث إعجابه ببلده فإنه قد امتطى زمام النثر أيضا عله يكون ترجمانا واضحا من خلاله يستطيع أن يفجر ما بدخله من حب لهذا الوطن العزيز عليه، وفي هذا المجال يقول الدكتور مصطفى الشكعة: " وقد بدا للصفوة علمائهم وكتابهم أن يسجلوا مفاخر وطنهم نثرا كما سجله الشعراء شعرا، فتسلموا لذلك الأسباب واقتضوا المناسبات التي اتخذوا منها ذريعة للإشادة بوطنهم سحرا وموقعا وجمالا وبمواطنيهم علما وشعرا وأدبا وفعلا" [1]

نفهم من هذا القول أن المحور الرئيسي لهذه الرسائل يدور حول نقطتين:

الأولى مادية: تتمثل في الطبيعة الأندلسية الملموسة، من ماء وموقع جغرافي وجمال طبيعي

الثانية معنوية : تتمثل فيما تزخر به البلاد الأندلسية من ثقافة تفجرت في عقول العلماء، والأدباء والفقهاء، وكلاهما دفعت الأديب الأندلسي إلى الانبهار ببلده والدفاع عنها ومن أشهر أدباء هذا النوع من الرسائل عندنا ابن حزم الأندلسي (طوق الحمامة) إسماعيل بن محمد القلقشندى ولكل منهما رسالة في فضل الأندلس.

أهمية الرسائل:

ارتفع شأن الرسائل التي ساعد على قيامها وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها فاستقل فن الرسائل عن الكتابة الديوانية وعالج موضوعات من الحياة واعتمد الخيال في ابتكار الصور وكان هذا الفن في العهد الأول مطبوعا لا يلتزم السجع إلا ما تقضي به البلاغة كما هو الحال في رسائل ابن زيدون، وابن شهيد ثم صار إلى تكلف السجع والتزيين وتقلب الجمل على المعنى لواحد والإكثار من الأدعية والأمثال والشواهد الشعرية كما في رسائل ابن برد الأصغر وقويت موجة التنميق في المرحلة الأولى فغلبت الصنعة وكثر التكلف وغدا النثر في فن الرسائل عبارات مرصوفة ومعاني جافة وصورا مسجوعة كما في رسائل لسان الدين بن الخطيب [2]

والرسائل من حيث غايتها قسمان:

قسم فكري:

[1]- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 569

[2]-يوسف عيد،دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب ، ناشرون طرابلس ، لبنان ، 2006، ص556.

يعالج القضايا الاجتماعية والعقلية من دون الاهتمام الزائد بوجود البيان كالرسائل التي ألفها ابن باحة الفلسفية.

قسم بياني:

يهدف إلى إظهار البراعة الأسلوبية كرسالة ابن برد الأصغر في السيف والقلم ورسائل الزهريات[1] وقد اهتم كتاب الرسائل بوصف الرحلات إلى المدن والبلاطات كما عند أبي عبد الله محمد بن مسلم الذي ترك رسالة طي المراحل وفيها يطرق أبواب المدن ويصور كيف حملته الأسفار المرهقة إلى ارتياد المناطق طوال سنوات.

III- شروط كتابة الرسائل:

- **السجع:**

أصبح التسجيع شرطا من شروط الترسل ، وهو من ثمار التأنق لما يقتضيه من العناية في إتقانه ، فالرسالة المسجعة يظهر التأنق فيها أكثر من غير المسجعة، وتدل من جهة أخرى على تفرغ صاحبها لتنميق ولا يكون ذلك إلا في الرخاء والسجع إذا أتقنت صياغته اكتسب المعنى قوة ورونقا.

- **الجناس والبديع:**

وأكثروا من الجناس وهو من قبيل الترصيع للآنية أو الوشي للثوب والجناس أو البديع لا يزيد العبارة معنى لكنه يكسبها رونقا ولا سيما مع السجع.

- كثر فيه الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور لكنه مقفى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعرا.
- كثر تضمين مراسلاتهم الأمثال أو النكت الأدبية أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى شرح.
- أكثروا فيه الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ووضوحا ويكسبه قوة على إبداع ما في خاطر الكاتب.

---

[1]- من أنظر ما قدمه النثر الأندلسي تلك الرسائل المعروفة بالزهريات وهي ضربات احدهما وصفي تصويري والأخر يقوم على المناظرة والمفاضلة.

- صار للرسائل نمطا خاص ، فالرسالة تبدأ غالبا بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابة وقد يأتي اللقب مشفوعا بالدعاء بصيغة الغائب، وقد يجعلون الخطأ بصيغة المخاطبة في بعض الأحوال
- تفرغ الترسل إلى أبواب عملا بنسبة النشوء كما تفرغ الشعر فصارت الرسائل تقسم إلى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والإخوانيات والسلطانيات ونحو ذلك
- تمتاز مقدمات الكتب أو خطبها بتقديم الحمدلة والصلاة على النبي وتختم بأية يحسن الختام بها كقولهم "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت" أو بالحسبلة ونحوها.
- اختصاص كل طبقة من الوجهاء ورجال الدولة بنعوت خاصة بها فإن تفاوت رجال الدولة في المنزلة والنفوذ اقتضى أن تتفاوت أساليب مخاطبتهم.
- صار الإنشاء فنا له ألفاظه الخاصة يسموها الألفاظ الكتابية لا يتجاوزنها إلى سواها وتولدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته كالتسجيع والترصيع والتبديل والمكافأة والاستعارة والتتميم والتقسيم والأرداف والتمثيل والتكرير وغيرها ولكل منها غرض في الإنشاء.

بنية الرسائل:

إن الدراسة الفنية للرسائل الرسمية والأدبية تتمثل في هيكلها أو في بنيتها النموذجية وكذلك في الأسلوب والذي نعني به تلك الأساليب الشعرية المستخدمة في الرسائل هذا إضافة إلى الصور الفنية أو البلاغة.

عناصر بنية الرسالة: [1]

- البسملة والتصلية على النبي وعلى آله وصحبه
- ذكر المرسل والمرسل إليه، والدعاء لهما
- التحية والتحميد، البعدية ، الحمد له ، التصلية، إيراد خطبة بما فيها من دعاء
- ذكر مكان كتابة الخطاب، والدعاء له بالحماية
- ذكر تاريخ الرسالة وهذا يكون في بعضها

---

[1]- الطاهر محمد توات ، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرن السابع والثامن هجريين ، ديوان المطبوعات الجامعية، ج1،ط2، ص 381.

هذا هو الهيكل الرسمي للرسائل الذي كان سائدا في القرنيين السابع والثامن الهجريين ببلدان المغرب والأندلس، لكن بعض تلك العناصر لم تكن تتسم بالثبات والاستقرار وإنما كانت تتسم بالتغيير وهذا كان يتم عن طريق التعديل أو الحذف أو التقديم والتأخير.
وهذا من الملاحظ أن الدعاء كان يتكرر في بعض عناصر تلك البنية أو الهيكلة ، بل يكاد يتكرر كل ما ذكر المرسل والمرسل إليه والمكان الذي يصدر منه الخطاب ، هذا بالإضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام أو قل إنها تحية الختام ، كما أننا لا نريد التعرض إلى كل تلك العناصر وإنما نريد التعرض إلى أهمهما وهي مقدمات الرسائل وخواتمها.

أولا: مقدماتها: [1]

- أما المقدمات فتحتوى على المرسل والمرسل إليه ، وكذلك الدعاء المقرون بهما، هذا بالإضافة إلى التحية بصفة عامة.

ثانيا: صيغ الانتقال إلى أغراضها (الرسالة): [2]

إن التخلص من المطالع أو الانتقال إلى الغرض المقصود والذي يتمثل في تعابير وألفاظ خاصة ومقرونة بالدعاء.
أما إذا كانت الألفاظ "كتب" و "كتبنا" و "كتابنا" تدل على الانتقال إلى الغرض أو الموضوع المتمثل في هيكل الرسالة فإن لفظ "والى هذا" يدل دلالة قاطعة على الدخول وبصفة مباشرة في صميم الموضوع.

[1]- الطاهر محمد توات،المرجع السابق ، ص 382
[2]- الطاهر محمد توات ، المرجع نفسه، ص 382

وكل هذا نجده ينطبق بالخصوص على الرسالة الرسمية، لان الرسالة الأدبية لا يلتزم فيها الكاتب ببناء معين، بل يكون فيها حرا طليقا.

ثالثا: خواتمها: [1]

أما الختام فيكون في الغالب بلفظ "السلام" أو بتعبير "رحمة الله وبركاته" وانه يكون مسبوقا بالدعاء.

يقول الدباغ الفاسي في ختام رسالته ابن الأحمر قائلا: "والله تعالى يبقى بركته، ويديم عافيته ، ويتمم ما جنحت إليه طباعه، وسارع إلى تهذيبه من التواليف الشريفة والتصانيف،والسلام الأتم يعتمد كماله ورحمة الله وبركاته من معظم قدره أحمد بن محمد الدباغ "هذا ومن الملاحظ أن الدعاء يسبق دائما وأبدا التحية وذلك في كل الرسائل سواء أكانت رسمية أو أدبية.

---

[1]-المرجع السابق ، ص 391

الفصل الأول: تطور أدب الرسائل في الأندلس

1. نشأة أدب الرسائل وخصائصه
2. أهم كتاب الرسائل في الأندلس
3. أبرز الرسائل الأندلسية

المصادر والمراجع

أدب الرسائل :

إن فن الرسائل كان شكلا من أشكال النثر في الأدب العربي ، وبعد الاطلاع على النثر في العصر الجاهلي وجد أن فن الرسائل لم يكن موجودا في ذلك العصر ربما بسبب قلة استعمال الكتابة وصعوبة وسائلها.

قال شوقي ضيف : "العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ، لكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية". [1]

أ- نشأة أدب الرسائل وخصائصه:

إن العامل الأساسي الأهم والذي كان وراء نشأة أدب الرسائل وتطوره إنما هو الإسلام وما تبعه من الفتوحات والتي أدت بدورها إلى إحداث تطورات في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وذلك نتيجة الامتزاج بين الشعوب المجاورة للعرب وغيرها.

إن وجود الكتابة الفنية وتطورها ومن ضمنها أدب الرسائل إنما هو ثمرة من ثمرات الإسلام وحضارته لأن الظروف في فترة ظهور الدعوة الإسلامية ومحاولة نشر الإسلام وتبليغ رسالته اقتضت استخدام ما يعرف بفن الرسائل ، فالنبي يراسل أولي الأمر في الداخل والخارج للدخول في الدين الجديد والسير على خطاه ومنهجه وسارت الأمور هكذا حتى بين الصحابة بعد وفاة الرسول إلى أن أسس الأمويون ديوان الرسائل ، ومن ثم تطور الديوان وتطور أدب الرسائل والتطور الذي شهده هذا الأخير لم ينحصر عند العرب وإنما شمل بلدان أخرى قلدت العرب وغيرت في بعض الأمور حتى تقليدا أعمى ومنها بلاد الأندلس حيث شوهد فيها تطورا كبيرا من الناحتين : الموضوعية والفنية [2]

فمن الناحية الموضوعية : كثرت الرسائل الديوانية ، وتعددت أغراضها ، و أصبح الكاتب الأندلسي ينشئ الرسائل السياسية والحربية ويكتب العهود والمواثيق .

[1]- شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر ، دار المعارف ، مصر ط 12، ص 19

[2]- ينظر ، طاهر محمد توات ، المرجع السابق ، ص 79

أما من الناحية الفنية: فقد اهتم الكتاب بعناصر البناء الفني للرسالة من حيث البداية والموضوع والخاتمة، كما اهتموا بالمحسنات البديعية من سجع وجناس ومقابلة وازدواج، ومالوا إلى إطالة والإطناب وإلى تزيين رسائلهم بالشعر، أما في القرن الخامس هجري فقد تطور أدب الرسائل تطور لم يسبق له مثيل في القرون السابقة ، ومن مظاهر هذا التطور ترسم كتاب الأندلس خطى المشارقة وتأثرهم بأساليب النثر المشرقي سواء في الأغراض أو في طرائق التعبير والأداء [1] وكان ابن شهيد واحد من نقاد القرن الخامس هجري في الأندلس ، حيث آراءه في أصول الكتابة وطرائقها.

وأدب الرسائل ذو قيمة مزدوجة الأولى هي كون الرسائل خصوصا أدبية نثرية إبداعية تكشف طبيعة أساليب العصر في التصوير والتعبير ، فهي مزايا للنفس البشرية وطاقاتها الإبداعية ، وهي تغني اللغة العربية وترفضها برافد من المعاني والدلالات والاستعمالات التي تطورها وتحصنها وتجعلها متواصلة مع التعبير عن أدق المشاعر والأفكار في العصر ، وثانيها هي كون هذه الرسائل وثائق في العصر تكشف خباياه وأسراره في مختلف الشؤون [2]

أدب الرسائل في عيون النقاد:

في بلدان المغرب والأندلس نجد على سبيل المثال الحميدي 448 هـ في كتابه "تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل" أبي المطرف بن عميرة الذي جمع ودون له رسائله ابن هاني السبتي[*] كما يخبرنا بذلك ابن الخطيب في إحاطته ، وهذا في قوله: "ودون ترسل رئيس الكتاب في أبي المطرف بن عميرة وضمه في سفرين" [3]

ومما لاشك فيه أن الجمع والتدوين يدل على القيمة الكبرى لتلك الرسائل ولا سيما من الناحية الشكلية لأن في هذا العصر كان يعنى الكتاب بالصياغة اللفظية أكثر من عنايتهم بالمعاني.

(1)- ينظر ، المرجع السابق، ص 79

(2)- ينظر، الطاهر محمد توات ، المرجع نفسه، ، ص 84

(*)– هو محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي ، ويكنى أبا عبد الله ويعرف باسم جده ، وأصله من أشبيلية ، توفي بجبل الفتح (جبل طارق) 733هـ

(3)- الطاهر محمد توات ،المرجع السابق ، ص 81

وقد تغلغل أدب الرسائل في الأنواع النثرية كالمناظرات ، والمقامات ، كما تغلغلت الرسائل الأدبية في موضوعات كانت خاصة بالشعر أو هي بالشعر أولى ، بل اقتربت من أساليبه ، كما كانت تمتاز بطول النفس على المقامات ، ومن خلال هذا ألاحظ أن أدب الرسائل قد طرق كل ميادين الأدب سواء كانت نثرية أو شعرية للتعبير عما يجول في خاطر الأشخاص من آراء وأفكار ، وبمعنى آخر أن أدب الرسائل عبر ، ولا يزال يعبر عن الأفكار والعواطف ، وبهذا استطاع أن يهيمن تقريبا على كل ما يمس المجتمع سواء من قريب أو بعيد ، إذن فقد تبوأ منزلة رفيعة ومكانة مرموقة[1].

أهم كتاب الرسائل في الأندلس:

لقد أدى تطور أدب الرسائل في الأندلس إلى ظهور نخبة من الكتاب والمتراسلين الذين كان لهم محاولات عدة في التنظير لهذا الأدب وكان لهم الموهبة الإبداعية في معالجة

[1]- ينظر ،الطاهر محمد توات، المرجع السابق ، ص 80

موضوعات مختلف في شتى المجالات ولعل أشهر هؤلاء المترسلين عندنا ابن زيدون لسان الدين بن الخطيب ، ابن برد الأصغر ، ابن حزم الأندلسي، ابن شهيد القلقشندى وغيرهم ممن ساروا في مضمار كتابة الرسائل والذي أنا بصدد التعريج إليهم:

ابن برد الأصغر:

هو أبو حفص بن برد يعد من أبرز كتاب الرسائل في الأندلس بصفة مميزة ينتمي ابن برد – كما ذكر الأدباء – إلى أسرة ذات شأن في قرطبة، سواء في مجال الكتابة أو السياسة ، وهذا صحيح ، إذا تذكرنا جده أحمد بن برد الأكبر ، شخصية تبرز في الصدارة في لحظات متعددة وحاسمة في تاريخ الخلافة من بداية العامريين ، إذن فقد كانت عائلته عريقة في مجال الأدب [1] حيث قال ابن بسام : "كان أبو حفص في وقته فلمك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله إليها طرق ، وفي عروقها الصالحات عروقا، إذ كان جده أبو حفص الأكبر واسطة السلك ، وقطب رحى الملك بالحضرة العظمى قرطبة" [2]

ولأبي حفص بن برد الأصغر رسائل كثيرة منها رسالته في النخلة ، رسالة السيف والعلم هذا هو ابن برد الأصغر الذي نبغ وتعلم على يد جده أبو حفص الأكبر وحتى على مشايخ آخرين ما جعله يصل إلى هذه المكانة المرموقة والمتميزة وحظي بثناء الأدباء والشعراء

ابن زيدون:

حياته: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي وبنو مخزوم بطن من بطون قريش.ولد عام (394 هـ1003 م) بالرصافة ، من ضواحي قرطبة ، وقد امتازت

---

(1)- فرناندو دي لاجرانجا ،مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات، ترجمة أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، القاهرة، ط1، 2002، ص 19

(2)-فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية ، ص 115

بحدائقها الغنّاء ، وبساتينها الفيحاء، وجداولها الصافية ، ومناظرها الطبيعية وفي الرصافة قضى زمن طفولته وصباه ، حيث توفي والده وهو في الحادية عشرة من عمره فكفله جده لأمه الذي كان متوليا أحكام الشرطة والسوق في قرطبة ، وقد اشتهر بالشدة والصرامة في أحكامه.

إن ابن زيدون لم ينتفع كثيرا بعلم والده لأنه كان صغيرا فقضى حياته بين قرطبة واشبيلية ، تدرج في مناصب الدولة واصطدم بنار السياسة طويلا وقد وقع في عشق الأديبة الشاعرة الأندلسية المشهورة "ولادة بنت المستكفي" ولهما مطارحات ومجالس محفوظة ، وكان ينافسه فيها ابن عبدوس فاصطدم كل منهما بالآخر ، حيث كتب ابن زيدون رسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس بتهكم وسخرية، ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى بل دبر له مؤامرة سياسية واسعة النطاق جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه ورغم وجوده بالسجن إلا أن هذا لم يمنعه من كتابة الرسائل، فكتب رسالته الجدية يستعطفه بها، وكذلك استعطفه برسائل وقصائد أخرى، إلا أنه لم يرق له ، وأخيرا يعفو عنه مستجيبا فيه لشفاعة ابنه أبي الوليد ، إلى أن وفته المنية سنة (463هـ) [1]

أدبه:

يرتبط الجانب الأكبر من أدب ابن زيدون بحياته، فهو صدى لأحاسيسه المختلفة ومشاعره المتباينة ، ومن بين العوامل الفعالة في أدبه نورد مايلي:

* حبه لولادة وغيرها من النساء جعله ينظم الكثير من القصائد الغزلية التي تزخر بالعواطف الحارة والجياشة.

*دخوله السجن، ففي السجن كتب رسالته الجدية ونظم كثير من القصائد في الاستعطاف، ثم فر من السجن، فترتب على فراره إنتاج أدبي له قيمته في حياته كشاعر وناثر.

* كثرة خصومه وأعدائه وحساده، وما قاموا به ضده من المؤامرات والدسائس وقد أوحى إليه هذا الجو بالكثير من المعاني الرائعة.

* مغادرته قرطبة نهائيا ، واستقراره في اشبيلية.

---

[1]- ينظر ، محمد رجب النجار، النثر العربي القديم من الشفهية إلى الكتابة فنونه مدرسة إعلامية ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ط2 ، 1423 هـ - 2002هـ ، ص 426

* البيئة الطبيعية التي نشأ بين أحضانها ، حيث الحدائق والبساتين والأشجار والطيور فقد ظهر أثرها في أدبه وتغنى بها في شعره.

* ميوله الخاص وما جبل عليه من حب لمجالات اللهو والخمر والغناء وقد شغل هذا جانبا كثيرا من شعره.

هذه هي العوامل التي أثرت في أدب ابن زيدون ولولاها لما كان له شأن يذكر بين الأدباء والشعراء ، إذن فأدبه صادق إلى أبعد حدود الصدق لأنه نابع عن تجربة نفسية مّر بها ابن زيدون ، فهو يعبر عما يختلج نفسه من حزن وفرح وألم وأمل ويأس وراحة أو تعب ، حب أو بغض .[1]

رسائله:

الرسالة الهزلية:التي كتبها إلى ابن عبدوس على لان ولادة.

الرسالة الجدية:التي كتبها بين جدران السجن وبعث بها إلى الحزم ابن جهور.

رسالته إلى أبي بكر مسلم : ولهذه الرسالة أهمية تاريخية خطيرة ،ففيها شرح ابن زيدون إجراءات محاكمته ،وما لقيه في السجن من تضييق وإرهاق ومبررات فراره وقد كتبها وهو في حالة خوف وفزع ، يتنازعه اليأس والأمل[2]

لسان الدين بن الخطيب:

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي أحمد السلماني ولد سنة 713هـ، وينصب إلى سلمان وهو حي من مراد من عرب اليمن ، انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس فسكن

(1)- ينظر، يوسف عيد ، دفاتر اندلسيه ص 139

2- ينظر،المرجع نفسه،ص139

قرطبة أولا ثم طليطلة ثم لوشة... وأخيرا استقر في غرناطة امتاز بيته بكونه بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ ، وكان يعرف بيت الوزير قديما وحديثا ببيت الخطيب. [1]
بيت اشتهر بالعلم والفقه والأدب والطب،وقد روى صاحب نفح الطيب لأبيه شعرا منه قوله [2]: **"الطِبُ والشِعْرُ والكِتَابَةُ سِمَاتُنَا في بَنِي النَجَابَةُ "**

وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه ، فكان نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالمفاهيم النقلية ، وقد ذكره ابن خلدون وهو معاصر له فقال:" قرأ وتأدب على مشايخه غرناطة واختص بصحبة المشاهير وأخذ عنهم العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب وانتحل الأدب وأخذ عن أشياخه وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ،وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت في الأفاق،فرقاه السلطان إلى خدمته ،أثبته في ديوان الكتابة ببابه مرؤوسا بأبي الحسن بن الجيّاب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية" [3]

يفهم من قوله بأن لسان الدين قد ترّبص وبرز على يد علماء ومشايخه غرناطة فتعلم واختص في عدّة مجالات حيث كانت عنايته في كتابته الأدبية وفي خصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية ، فكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإحاطة والإطناب له في الأدب منزلة عالية ومكانة جليلة ، وله في الشعر والنثر إجادة وأكثر نثره في السياسة وما يتصل بها. [4] تولى ديوان الكتابة ومقاليد أمور الدولة، انغمس في مجال السياسة ودسائس السياسيين وحقد الحاقدين حتّى ألقي به في غيهب السجن ودسّ إليه من قتله على نحو أسف، خصص له المقري مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما سيرته وأدبه... يعد أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة... له مؤلفات في التاريخ والطب والتصوف والموسيقي... إلى جانب رسائله الديوانية (السلطانية) وتراجم الوزراء والعلماء والأدباء

---

[1]- ينظر ، د. يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص 558

[2]- المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، ج 3 ، ص 7

[3]- المقري ، المرجع نفسه، ص 334

[4]- ينظر ، شو قي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 333

ممن اتصل منه بسبب كأساتذته وتلاميذه ومعاصريه ، وأكثر شعره في الملوك والسلاطين ومقدمات.[1]

فكل أعماله تدل على اطلاع واسع وفكر خصيب، يمتاز أسلوبه بالسجع والإطالة فهو شبيه بالجاحظ في الاستطراد إلى حد الإملال وفي هذا الصدد يقول عنه أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : "هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض ... مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي يكاد يخلو من عتار والإطناب الذي يقضي إلى الاجتناب والإسهاب الذي يقد للاهاب ويورث الالتهاب" [2]

نلاحظ من خلال هذا التداول أن ابن الخطيب كان يتميز بكل صفات الشاعر الفصيح والكاتب البليغ لولا أن الإطناب كان يصغي على أعماله إلى حد الإملال حيث يقول عنه بعض العلماء أنه تأثر بالجاحظ في عملية الاستطراد وهذا يوحي لنا بأنّ أعماله تتشابه مع أعمال الجاحظ ، لكن هذا لم يمنعه بأن يكون ناجحا عظيما في حياته الأدبية.

ومن رسائله رسالة وجهها إلى السيد الشريف "عبد الله بن نفيس" وقال:

**جُزيتَ يا ابنَ رَسُولِ اللهِ أفضَلَ ما		جَزَى الإلَهُ شَرِيفَ البَيت يَومَ جَزَى**

**إنَّ أعجَزَ الشُكرِ مِني مِنَّة ضَعُفَت		عَن بَعضِ حَقِّكَ شُكرَ اللهِ ما عَجَزَال** (3)

ابن حزم:

هو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد سنة 384 هـ وقد قضى فترة صباه في حريم قصر والده في الزاهرة وأصبح والده "أحمد" وزير المنصورين أبي عامر حيث عهد إلى النساء

(1)-يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص 560

(2)- ينظر ، المرجع نفسه ، ص 560

(3)- المقري المرجع السابق،ص336

بتربيته وتحفيظه القرآن ، كانت نشأته ناعمة مترفة حيث أكسبته البيئة النسائية كثيرا من الخبرة في أحوال النساء وأسرار نفوسهنّ، أي أنه اكتشف وتعلم عدة أمور تخص النساء ، كما له تجارب عاطفية فتحت قلبه على الحب والعشق وأمدته بكثير من قصص الغرام ، دفعته إلى البحث في فلسفة الحب. [1]

ينحدر ابن حزم من أسرة اسبانية الأصل ، وكان أبوه يهتم به كثيرا ، وحينما تداعت الخلافة الأموية بقرطبة نفي ابن حزم إلى مدينة المرية ثم إلى مدينة شاطبة في شرق الأندلس.

نجح منها في تولية صديقه عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر عرض الخلافة الأموية ، وصار حاجبا له إلاّ أنّ الخليفة الجديد لم يلبث أن قتل بعد شهرين من توليه المنصب (415 هـ - 1024م) وعلى إثر ذلك اعتزل السياسة وتفرغ للتعليم والتأليف.

اعتنق المذهب الظاهري الذي نشأ بالمشرق على يد دواوين علي الأنصاري الإصبهاني ويهدف إلى التمسك بظاهر القرآن أي بمعناه اللفظي ، وحاول نشره بالأندلس ولذلك اصطدم بفقهاء المالكية ، وعقب ذلك اعتزل الناس ، فقد كان حاكما فقيها ، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، انتقد كثيرا من العلماء فاجمعوا على تضليله وتحذير سلطانهم من فتنه فأقصي وطورد ، واضطرّ إلى الرحيل إلى بادية لبلة أين توفي في عام 456هـ/ 1064م) [2]

لابن حزم أعظم الكتب التي تعد تراث ضخم في المكتبة الأندلسية ومن بينها: [3]

- **في الفقه والأصول:** الأبطال – المصلي –الإيصال.
- **في تاريخ الأديان:** الفصل في الملك و الأهواء والنخل – شرح الموطأ.
- **في الفلسفة:** الأخلاق والسير في مداواة النفوس .
- **في التاريخ:** جمهرة أنساب العرب – نقط العروس.

---

[1]- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ، رسائل ابن حزم الأندلسي ،تحقيق إحسان عباس ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،ج 2 ،ط1، 1402-1981،ص 183.

[2]- د.عبد القادر بوبابة،المؤنس في مصادر من تاريخ المغرب والأندلس ،دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، ط 1 ، 1432 هـ / 2011 م ، ص53 .

[3]- يوسف عيد ، المرجع السابق، ص 502

- له رسالة مشهورة في بيان فضل الأندلس وذكر علمائه.
ومن أهم مؤلفاته "طوق الحمامة" في الآلفة والآلاف الذي ألفه ابن حزم خلال زمن الفتنة (سنة 410 هـ- 1019).

الكل يتحدث عن شخصية ابن حزم الأديب والشاعر والفقيه والفيلسوف ورغم الظروف التي مرّ بها في حياته إلاّ أنها لم تمنعه من البحث في صيرورة التعليم والتأليف ومواصلة مسيرته العلمية ومواجهة الأعداء والمناهضين إنّ البيئة النسوية التي نشأ فيها ابن حزم كان لها الأثر الكبير إذ تطبعت نفسه بحب الجمال وتفتحت حواسه على الكثير من أفانين الحب ، وهو نفسه يعترف بأنّ الحب هو شغل المرأة الشاغل لذلك نجده تعلم الكثير من أمور الحب بين العشاق من النساء والرجال. [1]

القلقشندى:

هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد
الله بن محمد بن إسماعيل شهاب الدين الفزاري من قبيلة فزارة ، القلقشندي القاهري الأصل الشافعي ، ولد في قلقشندة ، وهي قرية قرب القاهرة سنة 700، لقد نشأ نشأة حسنة وتربى تربية علمية صحيحة نشأ في قلقشندة وتعلم فيها حفظ القران الكريم ثم بعد مدة سافر إلى الإسكندرية لاستزادة في العلم والتفقه في الدين، وحصل منها على إجازة بالتدريس وإجازة بالرواية فعرف بالذكاء والجد في التحصيل والشغف بالكتابة ، وعدّها أشرف مهنة ثم استقر

[1]- ينظر ، المرجع نفسه ، ص 501.

وعكف على التأليف والتصنيف وجلس للتدريس واستفاد منه كثير من طلبة العلم ، حيث كانوا يعرضون عليه ما حفظوه ثم اختير ليكون منشئ ديوان الإنشاء بالديار المصرية وقد استمر في كتابة الإنشاء مدة طويلة وله عدد من الرسائل : [1]

- لقد تتلمذ القلقشندى على يد مجموعة من الشيوخ الذي اخذ عنهم الكثير في مجال العلم والكتابة ومن بينهم:
- ابن الملقب ، سراج الدين أبو حفص عمربن أبي الحسن الليث بن سعدة.
- ومن مؤلفاته صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.
- حيلة الفصل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.

توفي القاضي شهاب الدين القلقشندى ليلة السبت العاشر من جمادى الثانية سنة 629 عن عمر ناهز 65.[2]

رسالة لسان الدين بن الخطيب:

لقد كتب هذه الرسالة على لسان سلطانه محمد الغني بالله بن الأحمر يبشره فيها بالفتح حيث قال: "أيها الناس ضاعف الله بمزيد النعم سروركمّ و تكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم!

أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم المترادفة بيمنه وسعادته نعم الله عليكم ! أمتع الله الإسلام ببقائه !

وأيده على أعدائه في أرضه بملائكة سمائه" [1] ، ثم يمضي ابن الخطيب في رسالته للحديث عن الجهاد وفضله وثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن المعرفة التي انتصر فيها

---

[1]- يوسف عيد ، المرجع السابق ، ص 563

[2]- يوسف عيد ، المرجع نفسه ، ص 563

الأمير محمد الغني بالله بن الأحمر إلى أن يصل إلى الحديث عن الفتح الذي وصل إليه الأمير بعد جهد وعناء كبيرين فيقول: " فتح هني ، وصنع سني ، ولطفا خفي ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته وقفوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته" [(2)]

وفي الأخير ينبه الأمير بضرورة شكر الله تعالى لأنه بالشكر تكثر النعم، وتزيد فيقول: " وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم" [(3)]

ويلاحظ من رسالة لسان الدين ابن الخطيب أنه التزم بالسجع، وأكثر من الدعاء كما في قوله "ضاف الله بمزيد النعم سروركم"

تكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر، هذا فضلا عن إطنابه إلى حد الملل والسأم ، وربما يكون في ذلك أنه يسعى إلى إيضاحها للمرسل.

وهو بهذه الخصائص يتشابه مع مدرسة القاضي الفاضل من حيث الالتزام بالسجع والإطناب، والإكثار من صيغ الدعاء، وهذا التشابه بينه وبين القاضي الفاضل في المشرق لا يعني عدم الاجتهاد في ابتكار معاني جديدة تجعله ينفرد بها أمام نظيره المشرقي ، خاصة وأن ابن الخطيب قد عرف بشعره وموشحاته ، وخطبه ، وحتى مدحه الديني ، فكيف له أن لا يستطيع الابتكار وخاصة في جانب الرسائل الديوانية، وقد كان وزيرا مشهورا وأديبا موهوبا.

ويرى بعض العلماء أن هذه الرسائل تتميز بجملة من الخصائص من أهمها:

المحدودية الزمنية ، وهذا ما كان سببا في قلتها ، وضياع العديد منها ما عدا بعض تلك التي احتوتها عيون المكتب في الأدب الأندلسي والذخيرة ، ونفح الطيب، كما تتميز بمحاكاتها للرسائل المشرقية خاصة مدرسة القاضي الفاضل التي تكثر من السجع وتطنب في الكلام ، وتعتمد على الدعاء ، لكن هذا التقليد لا يعني عدم التجديد [(4)]

---

(1)- المقري ، نفح الطيب ، ص 41

(2)- المرجع نفسه ، ص 41

(3)- المرجع السابق ، ص 41

(4)- ينظر ، يوسف عيد ،دفاتر أندلسية، ص 559

رسائل ابن زيدون:

لقد عرفت كتابات ابن زيدون بعاطفتها الرقيقة حتى قيل بأنه شاعر وإضافة إلى شعره فقد اشتهر ابن زيدون بالنثر الذي يصنف معظمه في باب الرسائل الإخوانية ومن أهم رسائله شهيرتان إحداهما جدية ، والأخرى هزلية.

الرسائل الجدية:

لقد كتب ابن زيدون هذه الرسالة في السحن إلى أبي الجزم بن جهور أمير قرطبة ، أيام الفتنة ، وفي هذه الرسالة يعمل ابن زيدون على استعطاف الأمير ، كما يبرأ ذمته مما اتهم به [1]

[1]- محمد رجب النجار ، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية ، ص 426.

يقول ابن زيدون في رسالته الجدية : "يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه، واعتدى به ، وامتدادي منه ، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم ، وأرى زند الأمل ثابت عهد النعمة"[1]

هكذا يبقى ابن زيدون يصف حاله في السجن مستعينا بالنثر حينا ، وبالشعر حينا عله يصل إلى ما يصبوا إليه ، متسائلا عن الذنب الذي اقترفه حتى جعل الأمير يغضب منه، وأحيانا أخرى يحاول أن يتجلى بالصبر، ويتمسك بالله العظيم عله يفرج عنه.

يلاحظ من رسالة ابن زيدون انه قد اعتمد السجع، مستعينا بالنعوت والتشبيهات كقوله : " ما مضى حد العزم، وأرى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة".

هذا فضلا عن استخدام الجمل القصيرة وهو بهذا متشابه مع الجاحظ في المشرق من خلال اعتماده السجع، التشبيه، والجمل القصار.

الرسائل الهزلية

وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس منافسه في حبه فيقول: "أما بعد أيها المصاب بعقله المورط بجهله ، البين سقطه، الفاحش غلطة ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب المتهافت تعافت الفراش إلى الشهاب، فإن العجيب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب" [2]

هذا الحقد الدفين جعل ابن زيدون يتهم ابن عبدوس بادعائه الخيلاء والجهل بقدرات نفسه ، فقد عمد أسلوب ابن زيدون إلى التصريح والمجاهرة بدل من التلميح والتورية ، وجاءت الجمل قصيرة سريعة متلاحقة متميزة بإيقاعها المنسجم.

---

[1]- يوسف عيد ، دفاتر أندلسية، ص 132

[2]- فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية ، ص 63

ثم يمضي ابن زيدون في الحط من قيمة ابن عبدوس عل لسان ولادة فيذكره بنسبه ، كما يحط من قيمته العلمية و الثقافية ، وحتى الجسمانية كما أن المتأمل لرسالة ابن زيدون يتوصل إلى نقطتين هامتين هما : ثقافته الواسعة ، فقد كان في بداية رسالته عالم تاريخ، واجتماعه وملما بالعديد من الأمثال والحكم،وكلام العرب هذا فضلا عن تضمينه رسالته العديد من الآيات القرآنية.[1]

أما النقطة الثانية فتتمثل في ظهور النزعة الجاحظية بين ثنايا رسالته وذلك من خلال استناد كلاهما على السخرية اللاذعة التي تنطوي على حد كبير من الهجاء الذي يحط من قيمة الخصم.

وهذه الرسالة الهزلية تتشابه مع رسالة التربيع والتدوير [2] للجاحظ في السخرية والتهكم بأحد الكتاب في عصره وهو أحمد بن عبد الوهاب ، يهزأ الجاحظ بجسمه فيقول: " كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدّعى أنه مفرط الطول، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته[3] واستفاضة خاصرته مدوّرا وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى البساطة[4] والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه [5]أخمص البطن[6] معتدل القامة ، تام العظم وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدّعى أنه طويل ألباد [7]

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 64

[2]- المرجع السابق، ص 73

[3]- الجفرة ، جوق الصدر

[4]- البساطة : الطول

[5]- عتيق : جميل

[6]- أحمص : ضامر

[7]- الباد : باطن الفخذ

رفيع العماد عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد وهو يدّعى انه معتدل الشباب حديث الميلاد" [1].

وبهذا فان كلا من ابن زيدون والجاحظ قد استندا إلى ما هو مادي أثناء هجائهما للخصم للوصول إلى ما هو معنوي الثقافة والنسب والمزاج.

لم تقتصر قدرة ابن زيدون الفنية على رسالته الهزلية، بل نجده أيضا قد جاء في الرسالة الجدية من حيث القدرة على ابتكار معان جديدة ، والتلاعب باللفظ وهذا دليل على براعته وثقافته الواسعة التي ظهرت بصماتها في أعماله الأدبية سواء في الشعر أو النثر .

رسالة السيف والقلم:

تعد رسالة السيف والقلم أهم رسائل ابن بر الأصغر وأكثرها ذيوعا ، وقد وصفت بأنها "من بدائعه العقم ، المستنزلة للعصم" [2] وذلك لأهمية موضوعها وجدَّته – من ناحية – ولأنها من ناحية أخرى – تعكس شخصية ابن برد الحقيقية في الكتابة ، وتتمثل طريقته وتبرز عناصر صنعته.

وقد جاءت الرسالة في شكل مناظرة بين السيف والقلم، وذهب الفتح ابن خاقان إلى أن ابن برد " هو أول من قال بالفرق بينهما، وأن لا ننكر استناد ابن برد على انجازات فن المناظرات في النثر المشرقي" [3] أي يحاول أن يوضح لنا بأن ابن برد الأصغر تأثر بالمناظرات المشرقية وكتب على منوالها.

---

[1]- عبد العزيز عتيق الأدب العربي في الأندلس، ص 464

[2]- فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، ص 117

[3]- فارناندو دي جرانجا ، مقامات ورسائل أندلسية، ص 26

كتبت هذه المفاخرة بين السيف والقلم على طريقة الحوار "مثلا" يقول ابن برد على لسان القلم :" ها ، الله أكبر ، أيها المسائل بدءا يعقل لسانك ، ويحّير جنانك ، وبديهة تملأ سمعك ، وتضيق ذرعك ، وخير الأقوال الحق في تنزيل الله عز وجل لرسوله فقال : " **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)** "[1] فجلّ من مقسم ، وعزّمن قسم ، فما تراني وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره وجلت بين قلب الإنسان وخاطره؟ لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمنة"[2]

ويرد السيف غاضبا باعتباره أداة القوة والجسم قائلا: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة ومن وصف الخصلة التي وصف الملة ولكن أعلن قيمة كلّ امرئ ما يحسن إن عاتقا حمل نجادي لسعي... يشق منى الدجى بمصباح ، ويقابل كل باب بمفتاح أفصح والبطل قد خرس وابتسم والأجل قد عبس، أمضي فلا أنسف ، وأمضى فلا أصرف أزري الوفاء ، وأهتك الأمة هتك الرداء. [3]

ما يلاحظ من خلال المثاليين نجد أنّ ابن برد يرفع من شأن القلم لكونه أديبا وله صلة وثيقة معه والثانية باستدلاله من القرآن وقوله بأنه هو المصدر الأساسي للتأكيد على قيمة القلم بتنزيله في الآية على الرسول صلى الله عليه وسلم.

لكن السيف ترتفع درجته غضبه على حد قول ابن برد في رسالته ويدافع عن نفسه باعتباره رمز القوة والحرب وبه تهلك عدة أمم ويأتي النصر حليف أمم أخرى.

فنجد المتنبي يصف ويمدح السيف من خلال الواقعة الحربية التي يتغنى بها في قوله:

السَّيفُ أصدَقُ أنبَاءَ مِنَ الكُتُبِ   في حَدوِهِ الحَدُ بَيْنَ الجِدِ واللَّعِبِ (1)

وعلى هذا النحو تستمر رسالة السيف والقلم لابن برد بالحوار المسحوب بالجدال بين هاتيتن الآليتين في مجال الأدب والحرب إلى أن يصلا في النهاية إلى المصالحة ويمدح مجاهد الذي كان ذريعة أنشئت من أجله الرسالة وهو عاهلا كان شغفه بالحرب واضحا خلال ملكه الطويل.

---

[1]- سورة العلق ، الآية 3و4

[2]-فوزي عيسى ، المرجع نفسه ، ص 122

[3]- المرجع السابق، ص 122

إذن فابن برد باعتباره أديبا كان يدافع عن القلم ومجاهد باعتباره ملك فهمه الوحيد هو قوة السيف وانتصاره وبهذا تنتهي هذه الرسالة بالسلام مؤكدة أن شرط التفضيل بينهما يرتكز على أن الاثنين مفضلان لدى مجاهد.

رسالة طوق الحمامة:

منة خلال اطلاعنا على مجموعة من الكتب التي تناولت طوق الحمامة بالدرس والتحليل فيتبين لنا أنه كتاب في فلسفة الحب، والحب ظاهرة مثالية في كل مجتمع منى المجتمعات وقد أعطاه الباحثين أهمية خاصة باعتباره من الكتابات التراثية النادرة التي تناولت عاطفة الحب بالتحليل والبسط ، لقد تناول عاطفة الحب بشكل منهجي، مستقل ومفصل ، وربما هذا يعود ، كما ذكرنا سابقا إلى نشأته في كنف الحريم اللائي جعلنه يغرق في الحب إلى أذنيه.

إنه حديث رجل صريح على الحب، فخبير به ، غنى بتجاربه ومشاهداته وأقاصيصه ولقد صنف ابن حزم كتابه هذا في هيئة رسالة، وذكر أنه ألفها نزولا على رغبة أحد أصدقائه وقد كتب له من مدينة المرية بذلك ، فخاطبه ابن حزم في مقدمة الرسالة بقوله : "وكلفتني – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة في صفه الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يفع

فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزايد ولا مفتنا ، لكن موردا لما يحضرني على وجهه ، ويحس وقوعه ، حيث انتهى حفظي وسعة بابي مما أذكره فبادرت إلى مرغوبك" [1]

ويؤكد كلام ابن حزم أنه استمد موضوعاته رسالته من الواقع لا الخيال، ومما عاينه وشاهده من أهل زمانه.

وقد التزم ابن حزم في رسالته الأصول المنهجية من حيث التقسيم والتبويب والتصنيف ، وحدد ذلك في مقدمته فقال [2]: "وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابا منها في أصول الحب عشرة، فأولها باب في (ماهية الحب) ، ثم باب في علامات الحب ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ،ثم باب فيه ذكر من لاتصح محبته إلاَّ مع المطاولة،ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير، ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا ... وهي باب الصديق المساعد ثم باب الوصول، ثم باب طي السر، ثم باب الكشف و الإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب العذر ، ثم باب المضني ، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الجن ستة أبواب ، وهي باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشي ثم باب الهجر ، ثم باب البيت ، ثم باب السلو...

ومنهما بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام في قبح المعصية ، وباب في فضل التعفف ، ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك مفترض على كل مؤمن [3]

قيمة كتاب طوق الحمامة:

لقد كانت هناك محاولات كثيرة في موضوع الحب قبل ابن حزم لكن لم تعطى تعريفا صريحا بالحجم الذي أعطاه إياه ابن حزم في كتابه طوق الحمامة بإكسابه الحب معناه

---

[1]- ابن حزم ،رسائل ابن حزم الأندلسي ، ص 188.

[2]- يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص508.

[3]- يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص509

كعاطفة وهوى في تاريخ الثقافة الإنسانية ، والغرب لم يع هذا المعنى للحب إلا عن طريق الشعراء المتجولين الذين كسبوه في ربوع الأندلس.

والظاهر للعيان أن طوق الحمامة لم يهمل بل حظي بالاهتمام الذي تحظى به الكتب القيمة، فقد طبع أكثر من مرة وترجم إلى عدة لغات على أيدي المستشرقين في مختلف بلدان العالم[1].

[1]- يوسف عيد ، المرجع نفسه ، ص526

الفصل الثاني: رسالة التوابع والزوابع نموذجا

1. لمحة موجزة عن ابن شهيد

2. التعريف برسالة التوابع والزوابع وأهدافها

3. المكانة الأدبية لرسالة التوابع والزوابع

لمحة موجزة عن ابن الشهيد:

هو أبو عامر أحمد بن عبد المالك ابن شهيد الأشجعي القرطبي ولد عام 382هـ وتوفي عام 346 – 1035هـ من بيت أدب ومجد، كان جده وزير عبدا لرحمن الناصر وأديبا من أكبر الأدباء في عصره ، عاش ابن شهيد حياته فنانا وأديبا وشاعرا وكتابا موهوبا ، متشبثا بالحياة وجوديا في رؤيته وقد شبهه أبو حيان التوحيدي بعبد الحميد الكاتب مرة (في أسلوبه) وبالجاحظ مرة أخرى في مزجه الجد بالهزل وروحه الساخرة وله رسائل كثيرة أهمها رسالة التوابع والزوابع قالوا عنه في الأندلس "عبد الحميد في أوانه والجاحظ في زمانه"[1]

له في مجال الشعر مقطوعات وقصائد شعرية وما وصل إلينا من شعره كاف للإطلاع على صفاته العامّة والخاصّة ، فقد طرق الأبواب والأغراض ما طرقه الشعراء في عصره وقبل عصره ، فمدح ورثا وهجا، وافتخر وتغزّل وشكا ووصف المرأة ومجالس اللهو والشراب والطبيعة والصيد.

من خصائصه الشعرية أنّ الموسيقى الهادرة تتزاحم مع الصور المتنوعة في بعض قصائده فيكثر من الجناس والتصريع والتشبيه والاستعارة ثم ميله إلى الأسلوب القديم جعله لا يلتفت إلى فن الموشحات[2]

أمّا في مجال النثر فله وسائل متفرقة في كتب الأدب يخاطب في بعضها الأمراء والوزراء كالمؤتمن عبد العزيز، وفي بعضها يخاطب الأدباء، كما ترك رسائل تعالج قضايا اجتماعية تاريخية وأخرى أدبية ضمنها آراءه النقدية مثلما فعل في رسالة التوابع والزوابع.

تضيء رسائله جوانب من حياته منها علاقاته السياسية والأدبية ، وصداقاته وعداواته ، تغلب بالتحليلات النفسيّة وتصوير الأخلاق وأوصاف دقيقة وبارعة لقد نال ابن شهيد مكانه أدبية مرموقة بين أدباء عصره ما جعلتهم يكبرون من شأنه في مقارنتهبالجاحظ الأديب البارع والمتميز. [3]

---

[1]- ينظر ، شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، ص 321

[2]- بتصرف ، يوسف عيد ،د فاترأندلسية ، ص 527

[3]- بتصرف ، المرجع نفسه، ص 528

رسالة التوابع والزوابع:

يقول معظم الباحثين عن رسالة التوابع والزوابع " أنها يختلط فيها الضحك بالشعر والنثر، ويتداخل عالم الإنس بعالم الجن والشياطين ، وترفع حواجز الزمان والمكان ، ويلتقي القديم بالحديث ، ويتعانق المشرق بالمغرب"[1]

من خلال هذا النص يتضح لنا أن رسالة التوابع والزوابع هي ضرب من النثر منفرد بنوعه ، إذ يتمازج فيه الشعر بالنثر في صورة كوميدية مضحكة كما يحدث فيها تمازج بين عالم الجن والشياطين ، وبهذه المزاوجة يصل صاحبها إلى إظهار قيم القديم، وتفجير طاقات الحديث فتكون رسالته بمثابة حلقة الوصل التي تربط بين ثقافة المشرق والمغرب.

والآن لا بد من الإشارة إلى ثلاث نقاط أساسية تتعلق بالرسالة قبل عرضها.

الأولى تتمثل في الرسالة في حد ذاتها والثانية تتعلق بالفترة الزمنية التي ظهرت فيها والنقطة الثالثة تتصل بأي نوع نثرى تندرج هذه الرسالة؟

الرسالة في حد ذاتها فإن ما يصطدم به الدارس لرسالة التوابع والزوابع هو عدم وجود مخطوطة لها ، أي أن صاحبها لم يحفظها في كتاب معين، بل أنها كادت تضيع مع من ضاع من تراث الأندلس التليد لولا أن ابن بسام على حسب ما أوردت بعض الكتب بأنه هو الذي حفظها في ذخيرته تحت عنوان (فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع) فكان له الفضل بهذا الاجتهاد في حفظ هذه الرسالة ، ولولاه لما وصلتا ولما تمكنا من الاستئناس بها، ومن ثمة دراستها .

أما الفترة الزمنية التي ظهرت فيها لا تزال لحد الساعة محل نقاش وجدال بين الباحثين فمنهم من قال بأنها قد ألفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة:أي سنة 404هـ،و منهم من قال بأنها قد ألفت قبل رسالة الغفران بعشر سنوات [1]أي سنة 414هـ.

---

[1]- علي محمد سلامة ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 495

أما أي نوع نثري تندرج فيمكنني القول بأنها مزيج بين عدة ألوان نثرية ، حيث أن الباحثين يرجحون الكفة ليجعلوها من الرسائل الإخوانية التي ظهرت في الأدب الأندلسي مع أبي حفص بن برد الأصغر ، وابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب، فكانت هذه الرسالة محل حوار بين الإخوان وحتى الأعداء بتداولها الأدباء في نواديهم ومجالسهم الأدبية ، ومناقشاتهم الفكرية ، وتضمنها فن القص ، والحوار حسب رأي من أجل جلب الأنظار حتى تكون محط انتباه المتلقين كي لا يشعروا بالسأم والملل.

أهداف رسالة التوابع والزوابع:

لقد نال ابن شهيد في زمانه مكانه أديبة رفيعة، إذ كان شاعرا تطرب القلوب لسماع أنغامه الموسيقية، كما كان ناثرا يتلهف الملتقون لتلقي نثره، وقد كان إلى جانب هذا ناقدا يقول رأيه النقدي بكل صراحة ووضوح ودون مراوغة.

---

(1)- بتصرف ، المرجع السابق، ص 496

ولكن نعمته هذه كانت نقمة عليه في العديد من الأحيان، إذ راح أهل زمانه يدبرون له المكائد ، ويدسون له الدسائس ، فكثر حساده وخصومه من شاعر يريد أن ينال من شعره، وناثر يحاول التقليل من قيمة نثره ، ولغوي يدعى عدم تمسكه بزمام اللغة [1].

لقد كان أبو عامر لا يهتم بمطالعة الكتب، وإضاعة الوقت في تصفح صفحاتها لأن البيان حسب رأية موهبة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، ومن هذه النقطة وجد خصومه ذريعة للهجوم عليه، فقال بعضهم بأن" شعره لا يحترم قواعد النحو والإعراب ، وقال البعض الآخر بأنّ شعره ما هو إلا تقليد لشعر المشرقيين، أما الفريق الثالث فقد اتهم أبا عامر بأن به "شيطانا يهديه، وشيصبانا يأتيه" [2] وأن ما يقوله من شعر إنّما هو من "فعل تابعه تنجده، وزابعة تؤيده" [3] لذلك فإّنه غير مشكور في شعره مادام قد استعان فيه بشيطانة .

إذن فالهدف الرئيسي من رسالة ابن شهيد هو النيل من معاصريه، وهذا لا يعني عدم وجود أهداف أخرى ثانوية كإظهار موهبته الشعرية ، ومقدرته على قول النثر والخوض في غمار النقد رغم صعوبته.

ففي مجال الشعر أجد بأن ابن شهيد قد هدف من رسالته إلى استعراض بدائعه الشعرية التي تشهد له على موهبته الفياضة من ناحية، وعلى قدرته في محاورة قمم الشعر المشرقي كامرئ القيس ، وطرفة بن العبد، والمتنبي ، وغيرهم من الشعراء المشرقين من ناحية أخرى.

أما في مجال النثر فقد عمل ابن شهيد على معارضة بديع الزمان، وعبد الحميد الكاتب والجاحظ ، ثم معاصريه كأبي القاسم الإفليلي وأبي إسحاق بن حمام فكانت رسالته في قسمها الثاني – معرض استعرضنا لجميل نثره وخاصة رسائله .

وإذا انتقلنا إلى النقد فإننا نجده يهدف من وراء رسالته إلى عرض العديد من ملاحظاته النقدية كالسرقات الشعرية ، والمعارضات ، وغيرها من الآراء التي تدل على أنه قد كان لأبي عامر هدف نقدي من وراء رسالته.

---

[1]- ينظر ، علي محمد سلامة ، المرجع السابق ، ص 494

[2]- دكتور فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ، ص 09

[3]- المرجع نفسه ، ص 09

هذا عن الأهداف التي بسببها كتب أبو عامر رسالته ، وقد يكون له أهداف أحرى نحن نجهلها ، وما علمها إلا عند صاحبها ، ولكن أهم هدف من هذه الرسالة هو النيل من الخصوم والحساد، فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أنّ أبو عامر شديد الانحناء على خصمائه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه يناقش الشرق والغرب والقديم والحديث ويدفع حملات النقاد ولا يرضى أن يجاز إلا شاعرا وخطيبا على حد السواء. [1]

- رسالة التوابع والزوابع:

سياحة شاعر في وادي الشياطين

التوابع:

جمع تابع أو تابعة وهو الجني والجنية يكونان مع الإنسان ويتبعانه حيث ذهب.

الزوابع:

[1]- بتصرف ، علي محمد سلامة ، المرجع السابق ، ص 494.

جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ومنه سمي الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في قاموس المحيط [1]

التوابع والزوابع:

اسم رسالة نفيسة واسمها أيضا "شجرة الفكاهة"، ولم تصلنا كاملة، إنما وصلتنا منها مقتطفات أوردها ابن بسام في كتابه الذخيرة على حسب ما ذكر بعض العلماء والمؤلفين في كتبهم

تقسم رسالة التوابع والزوابع حسب موضوعاتها إلى : مدخل ، وأربعة أجزاء ، وهذا التقسيم من أجل الفصل بين أفكارها وتتمثل هذه الموضوعات في ما يلي:

المدخل:

يتحدث أبو عامر في مدخل رسالته إلى صديقه أبي بكر بن حزم الذي تعلم، ونبض له عرق الفهم بقليل من المطالعة ، فراح يحسد أبا عامر على ما أتاه الله من المكانة الأدبية ، ويحاول الإحاطة من قيمته العلمية ، إذ يقول: " لله أبا بكر ظن رميته فاصمته ، وحدس أملته فما أشويت ! أبديت بهما وجه الجلية، وكشفت عن عرة الحقيقة ، حيث لمحت صاحبك الذي تكتسب ، ورأيته قد أخذ بأطراف السماء ، فألف بين قمريها..." [2]

من خلال هذا النص تظهر العداوة الحاصلة بين ابن الشهيد وصديقه أبي بكر بن حزم الذي أخذ يحسده على ما أتاه الله في موهبة صنع بها مجده الأدبي على الرغم من صغر سنه، فقال حاسدا له :" كيف أوتي الحكم صبيا، وهز بجدع نخلة الكلام، فاسقط عليه رطبا جنيا"[3]

كان يلقي الشعر في غرض الرثاء بسبب فقدانه من كان يهواه وبعد فراقه حزن عليه حزنا شديدا ثم انقطع عن القول ، وفي هذه اللحظة ظهر له فارس بباب المجلس على فرس أدهم ، وقد اتكأ على رمحه، وغطى وجهه ، فصاح به قائلا: " أعجزا يا فتى الإنس ؟ فأجابه ابن

[1]- يوسف عيد، دفاتر أندلسية، ص 529

[2]- فوزي عيسى الرسالة الأدبية ، ص 09

[3]- المرجع السابق ، ص 09

الشهيد : لا وأبيك للكلام أحيان، وهذا الشأن بين الإنسان [1] وبهذا ساعده هذا الفارس على جمال الشعر قائلا له : قل بعده

كَمَثَلِ مَلاَكِ الفَتَى للنَعِيـــم إذَا دامَ فِيه وحَالَ السُرور

فأثار بقوله هذا دهشة ابن شهيد الذي راح يسأله عن اسمه ، ونسبه ، فأخبره بأن اسمه زهير بن نمير ، وهو من أشجع الجن ، وقد تصور له رغبة في اصطفائه فرحب به أبو عامر قائلا له ، أهلا بك أيها الوجه الوضاح ، ثم تحادث الاثنان ،وفي الأخير قال له الجني " متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات"

إذا جَرَت الأفواهُ يَوْمًا بِذِ كرِها يَخَيَّلُ لي أني أقَبِلُ فــاهَـا

فَأغشَى دِيَارَ الذَاكِرينَ وإنْ نَأَت أجَارِع مِن دَارِي هَوَى لِهَوَاهَا [2]

ثم شق هذا الفارس جدار الحائط وغاب عن الأنظار ، تاركا لابن شهيد المفتاح السحري الذي من خلاله يستطيع استحضار "زهير بن نمير" كلما انقطع عنه مسلك من مسالك الأدب والشعر وبهذا المفتاح السحري ينتهي مدخل هذه الرسالة ليأتي بعد ذلك الجزء الأول.

الجزء الأول:

يبدأ هذا الجزء بتذاكر أبي عامر وصديقه زهير لأخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع ، فيسأل ابن شهيد صاحبه إذا كانت هناك حيلة من خلالها يستطيع أن يلتقي مع من يود رؤيتهم ، فيخبره صاحبه بأن عليه أن يسأل شيخ الجن في ذلك لأنه لا يستطيع القيام بأي شيء دون أخذ موافقته، ثم يغيب عنه فترة من الزمن ويرجع.

فيخبره بأن شيخه قد أذن له بذلك، فيصعد الاثنان على متن الجواد الذي اجتاب بهما الجو ، حتى وصلا إلى أرض يصفها ابن الشهيد في رسالته [3] فيقول: "التحمت أرضا لا كأرضنا ،

---

[1]- فوزي عيسى ، المرجع نفسه، ص 10

[2]- المرجع السابق، ص 10

[3]- يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص 530

وشارفت جوا لاكجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر" [1] فيسأل صديقه زهير عن هذه الأرض فيجيبه قائلا :حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن نبدأ ؟ فيخبره أبو عامر قائلا : الخطباء أولى عندي بالتقديم لكنني إلى الشعراء أشوق" [2] وبهذا تبدأ رحلة أبو عامر الخيالية مع توابع الشعراء ، فيطلب من زهير أن يمكنه من مقابلة صاحب امرئ القيس فيطيربه إلى وادي الأرواح ، وهو واد ذو دوح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره ، وهنا يجد عتبة بن نوفل شيطان امرئ القيس ، وقد ظهر على فرس لأشقر شقراء، مخطيا لوجهه ، فيصيح به زهير قائلا: " يا عتبة بن نوفل يسقط اللوىفحومل ويوم دارة جلجل ، إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك" [3] فانشد عتبة بن نوفل بعض الأبيات من قصيدته" ثم طلب من ابن شهيد أن ينشد هو الآخر وبعدما انتهى حتى قال له عتبة بن نوفل : "اذهب فقد أجز تك"[4]

وبعد أن ينتهي من مقابلة صاحب امرئ القيس يطلب منه أن يدله إلى صاحب طرفه بن العبد، فينطلق به على أن يصل إلى غابة كثيرة الشجر فيها عين دائمة الجريان ، فيصيح زهير قائلا : يا عنتر بن العجلان ، حل بك زهير وصاحبه ، فبخولة وما قطعت معها من ليلة ، إلا ما عرضت وجها لنا [5] ، فيظهر لهما فارس جميل الوجه، قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز، وبيده حظي ، فيطلب منه زهير هو الآخر أن ينشد لابن الإنس شيئا من شعره فينشد قائلا: " لسعدي بخزان الشريف وبعدما انتهى أنشد ابن شهيد قائلا: [6]

وَلَمَّا هَبَطنَا الغَيبَ نَذْعَرُ وَحشَهُ عَلى كُلِ خُوَارِ العِنَانِ أسيلُ

فلما سمع صاحب طرفه ابن العبد إنشاد ابن شهيد أجازه ثم غاب عنهما [7]، وبعد هذه المقابلة يغادر ابن شهيد الشعراء الجاهليين ليلتقي بشعراء العهد العباسي لكن قبل أن يصل

[1]- فوزي عيسى ، المرجع السابق ، ص 10

[2]- المرجع نفسه ، ص 10

[3]- سمالك شوق بعدما كان اقصرا وحلت سلمى بطن قوم فعرعرا وهي قصيدة مشهورة لامرئ القيس قالها عندما كان ذاهبا لبلاد الروم، امرئ القيس الديوان ، شرح عبد الرحمان المصطفاوي، دار المعرفة بيروت، لبنانط 4، 1429-2008 ، ص 93.

[4]- فوزي عيسى ، المرجع نفسه ، ص 10

[5]- فوزي عيسى ، ص 10

[6]- عجز البيت : وتلوح وأدنى عهد من محيل ، ديوان طرفة بن العبد ، بيروت، 1961 ، ص 76

[7]- المرجع نفسه ، ص 10

إليهم اعترضه في الطريق فارس ممتطيا لفرسه ، وهو أبو الخطار صاحب قيس بن الخطيم[1] فيخاف ابن شهيد منه، ومن مقدرته الشعرية ، خاصة وأنه لم يعرج عليه، فقد يغضب هذا الفعل صاحب قيس بن الخطيم ، فلا يعطيه الإجازة ولكن زهير حاول تبرير الموقف فأخبره بأنهما قد علما أنه صاحب صيد لذلك لم يريدا تعطيله عن مهمته فتقبل منهما العذر وطلب من صاحب الإنس "ابن شهيد" أن ينشده من شعره ، فأخذ ينشده قائلا :

خَليلَي عوَجَا بَارَكَ الله فيكما بِدَارَتِها الأولى يَحْي فِنَاءُها [2]

وبعدما انتهى ابن شهيد من قصيدته أجازه صاحب قيسابن الخطيم وبهذه الإجازة تنتهي مقابلة ابن شهيد لأصحاب شعراء الجاهلية، فيتوجه ما صاحب زهير ليلتقي بصاحب أبي تمام ، فيصل إلى عين تسيل بالماء ، فيصيح بها زهير قائلا: "ياعتاب بن حبناء، حل بك زهير وصاحبه، فبعمر والقمر الطالع ، وبالرقعة المفكوكة الطابع ، إلا ما أريتنا وجهك" [3] ثم يصعد إليهما قائلا: "حياك الله يا زهير ، وحيا صاحبك ، فيسأله زهير عن سبب إقامته في قعر العين، فيجيبهم قائلا: " حيائي من التحسن باسم الشعر وأنا لا أحسنه" [4]

وقد زعم ابن شهيد أن أبا تمام طلب منه أن ينشده شعره فأنشده ثم طلب منه أن ينشد أبيات أخرى في الرثاء وبعدما يسمع أبو تمام هذه الأبيات الرثائية يتوجه إلى ابن شهيد قائلا: " فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكد قريحتك فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ونقح بعد ذلك "[5]

فيفرح أبو عامر بهذه النصيحة ، وهذه الإجازة التي تلقاه من أبي تمام وبعد هذه المقابلة يسأله زهير بمن يريد أن يلتقي [6] فيجيبه بأنه يود مقابلة صاحب أبي نواس ، فيخبره زهير زهير بأنه في "ديرحنة" منذ شهر ، وقد غلبت عليه الخمرة، ودير حنة هذه في جبل بعيد عنهما، فيصر ابن شهيد على زهير أن يأخذه إليه ، فيركض الاثنان ساعة من الزمن حتى يصل إلى ذلك الجبل ، وقبل أن يصل شاهد ابن شهيد قصرا أمامه ميدان يتطارد فيه

---

(1)- المرجع نفسه ، ص 10

www.adab.com/literature/modules.php?

(3)- المرجع السابق ، ص 11

(4)- يوسف عيد ، المرجع نفسه ، ص 530

(5)- يوسف عيد ، دفاتر أندلسية ، ص 531

(6)- فوزي عيسى، المرجع نفسه ، ص 11

الفرسان، فيسأل زهير عنه فيقول بأنه طوق بن مالك صاحب البحتري ، ثم يسأله إن كانت لديه رغبة في ملاقاته فيتشرف ابن شهيد بذلك ، فلما خرج إليهما تذاكر الشعر معًا لكن إجازته لابن شهيد لم تكن واضحة مبتهجة ، فنرى بأن هذا الشاعر وقف سدا لابن شهيد، وهي إشارة إلى أنّ الشاعر الأندلسي تفوّق على ابن الطبع المشرقي" [1] دليل على غضبه لكن ابن شهيد يركن حتى يتحصل على إجازة صاحب البحتري ويواصل طريقه إلى ديرحنة فيسمعا قرع النواقيس ، ويشاهد أديارا وكنائس وحانات ، حتى يصلا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، فتقبل نحوهم الرهابين بيض الحواجب واللّحى، إذ نظروا إلى المرء استحيا مكثرين للتسبيح، عليهم هدي المسيح.

فيرحبوا بزهير وصاحبه ، ثم يسألوه عن الغاية من وجوده معهم ، فيجيبهم بأنه يريد حسن الدنان صاحب أبي نواس، فيخبروه عن حاله قائلين: إنه لفي شرب الخمرة منذ عشرة أيام، وما نراكما منتفعين به" [2] فيصر ابن شهيد على مقابلة صاحب أبي نواس، فيجداه مفترشا أضغاث زهر،متكأ على زق خمر، وبيده طر جهارة [3]

ومن حوله صبية ، فيصيح به زهير قائلا:"حياك الله أبا الإحسان" [4]فيجيبهم بجواب من غلبت عليه الخمرة، فيطلب زهير من ابن شهيد أن ينشده من خمرياته فقد يطرب لها أبي نواس فيستفيق من سكريته، فينشد أبو عامر وما أن يسمع صاحب أبي نواس هذه الأبيات الخمرية حتى يصيح من نشوته قائلا: "أ أ شجعي؟" فيجيبه : أنا ذاك ، فيستدعى صاحب أبي نواس ماء، فيشرب منه ، ثم يغسل وجهه فيستفيق من سكره ، ويطلب من زهير وصاحبه أن يعذراه على ما كان عليه من حالة " [5]

ثم يأخذ في إنشادهم قائلا:

يَادَيْرَ حَنَّة من ذاتِ الأَكَيْرَاحِ   منْ يصْحُ عنكَ فأني لستُ بالصَّاحي

يَعْتَادُه كلَّ مَحْفُوف مَفَارِقُـه   من الدهانِ، عليهِ سَحْقُ أمسـاحِ [6]

[1]- يوسف عيد المرجع نفسه ، ص 531

[2]- فوزي عيسى المرجع نفسه ، ص 11

[3]- طر جهارة شبه كأس يشرب به

[4]- فوزي عيسى، المرجع نفسه ، ص 11

[5]- المرجع نفسه ، ص 11

[6]- أبو الحسن ابن هانئ أبو نواس ، الديوان ، ت ، أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص 128

وبعد أن يكمل إنشاده يطلب من ابن شهيد أن يطربه بشيء في صفة الخمر، فينشده أبياتا يطرب لها، ثم يطلب منه أبياتا أخرى في الرثاء فيفعل أبو عامر ما طلب منه.

وما أن يسمع صاحب أبي نواس هذين البيتين يعجب بهما وينهمر بالبكاء وبعدها يقول له " "اذهب فانك مجاز هذا والله شيء لم نلهمه نحن" [1]

على هذا النحو يحتفي ابن شهيد برسم المشهد المناسب لشخصية أبي نواس ، ويهتم بإنشاده الشعر الذي يروقه ويناسب ذوقه حتى نال استحسانه والاعتراف بإجادته وبعد ملاقاة أبي نواس ذهب للبحث عن فرس صاحب أبي الطيب المتنبي، " فإذا بفارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كثيب، وبيده قناة قد أسندها على عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ، وقد أرخى لها عذبة صفراء"[2].

والنبط"[3] فيطلب صاحب الجاحظ منه أن يرميهم بسجع الكهان علّه يتخلص من هجومهم وبعد أن يتخلص من لوم صاحب الجاحظ على استعماله السجع في كلام، ويصل إلى رضاه حتى يجد هجوما عنيفا من صاحب عبد الحميد، ولكي يدافع عن نفسه فقد راح يقرأ عليه، وعلى صاحب الجاحظ رسائل كثيرة في صفة النار، والبرد والحطب، وكذلك الحلواء وبعد أن يستمتع صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد الكاتب لهذه الرسالة في صفة الحلواء يستحسنها ويضحكا ثم يقولان له : "إن ليجعلك موضعا في القلب ، ومكانا في النفس ، وقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك وملاحة سوقك " [4] ثم يسألانه عن حاسديه من أهل بلده، فيجيبهما قائلا: " أبا محمد ، وأبا القاسم الإفليلي ، وأبا بكر" [5]فيستدعيان أحد هؤلاء وهو أبو القاسم الافليلي للتحدث معه فيحضر أنف الناقة صاحب أبي القاسم الإفليلي إليهم في هيئة جني أشمط ربعة وإرم الأنف ، يتضالع في مشيته كاسرا لطرفه وزاويا لأنفه وهو ينشد:

قَومٌ هُمْ الأنَفْ والأذنَابَ غَيْرهُم وَهَلْ يَسْوِي بأنَفِ النَاقَةِ الذّنْبَا [6]

---

[1]- يوسف عيد، المرجع نفسه ، ص 531

[2]- المرجع نفسه ، ص 531

[3]- يوسف غيد ، المرجع نفسه ، ص 532

[4]- فوزي عيسى، المرجع نفسه ، ص 14

[5]- www.adab.com/literatur/modules.php ?

[6]- المرجع نفسه ، ص 14

وبهذا يدخل ابن شهيد في جدال حاد مع أنف الناقة صاحب الإفليلي ، فيذهب كل واحد منهما في سرد حججه التي يستند عليها في رأيه ، إذ يدافع صاحب الإفليلي على ما في صدره من قواعد النحو والإعراب ، أما أبو عامر فيجدها فرصة مناسبة لفش غليله في هذا الرجل الذي قيد الأدب بقوانين مجحفة فيخاطبه قائلا: " إنما أنت كمغن وسط، لا يحس فيطرب، ولا يسئ فيلهي"[1].

ثم يعود أبو عامر ليطرح قضية البيان فيرى أنها موهبة يؤتيها الله لمن يشاء من خلقه القائل في كتابه العزيز : **"الرَّحْمَانْ عَلَّمَ القُرْءَانَ(1)خَلَقَ الإنسَانَ عَلَمَهُ البَيَانَ (2)"** [2]

وانتهى الجدال لصالح ابن شهيد وقد عبر فتيان الجن عن إعجابهم بشعره بينما علت أنف الناقة كآبة واختلط كلامه.

فأنشد أبو عامر ولما سمع حارثه بن المغلس صاحب أبي الطيب هذه القصيدة فرح وتنبأ بمستقبل زاهر لابن شهيد وبهذا يعطيه الإجازة ثم يقبل رأسه ، وينصرف الجميع لتنتهي مع هذه المقابلة رحلة ابن شهيد مع توابع الشعراء وقد أخذ فيها الإجازة ونجح في جميع امتحاناته ، فيتمكن من اجتياز امتحانات أخرى مع توابع أخرى سأتطرق إليها في الأجزاء المتبقية من الرسالة.

الجزء الثاني:توابع الكتاب

تبدأ هذه الرحلة عندما يسأل زهير بن نميران ابن شهيد قائلا: " من تريد الآن؟" [3] فيجيبه قائلا: " مُرَّ بي إلى الخطباء فقد قضيت مجموعة من الشعراء" [4] فيركض الاثنان حتى يصل إلى مرج دهمان، وهو مكان اجتمعت فيه خطباء الجن للفصل بين كلاميين اختلفت فيه فتيانهم، فيسلم عليهم زهير، فلا يرد عليه أحد لأن الكل مشغول بهذا الاجتماع العظيم ، ولكنهم يكتفوا بالإشارة إليه بأن ينزل من على ظهر فرسه هو و صاحبه فينزل الاثنان وهناك يجدا شيخا أصلع جاحظا العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة وهو "عتبة بن الأرقم" صاحب الجاحظ وإلى جانبه "أبو هبيرة" صاحب عبد الحميد الكاتب، وبهذا يدور

[1]- يلهي ، يترك الشئ عجزا
[2]- سورة "الرحمن" الآيات ، 1-2
[3]- فوزي عيسى المرجع نفسه ، ص 12
[4]- المرجع نفسه ، ص 12

الحوار بينه وبين صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد الكاتب ، وبهذا فيعيب عليه الأول صاحب الجاحظ بإكثاره من السجع في نثره ، وأخذ ابن شهيد يدافع عن نفسه تلك التهمة منحيا باللائمة على أضرابه من الكتاب من أهل بلده أنه تلقى معاناة شديدة من أهل زمانه وهذه الحجة التي قدمها جعلت صاحب الجاحظ يتقبلها داعيا من الله أن يعينه ابن شهيد على هؤلاء القوم الأغبياء[1]

ثم يسأله عن كلامهم فيما بينهم ، فيجيبه قائلا: " ليس لسيبويه عليه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنما هي كلمة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس ثم يعرض له "زبده الحقب" صاحب بديع الزمان الهمداني وبهذا تبدأ المحاورة بينهما فبدأ في وصف جارية ، ثم في وصف الماء، فقال أبو عامر في صفة الماء : "كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح، له في إنائه انصباب الكوكب من سمائه ، الغبن حانوته والغم عفريته ، كأنه خليط من غزل فلق أو مخصر [2] يضرب به من ورق [3] يرفع عنك فتردى [4] ويصدع [5] به قلبك فتحيا [6]".

وما أن يسمع صاحب بديع الزمان هذا الوصف الرائع للماء حتى يأخذ في ضرب الأرض برجليه فينفجر عنها واحد فيدخله، ثم يغيب عن الأنظار، فيضحك صاحب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب لفعلته.

وبعدها يستمر ابن شهيد في تحدى الإفليلي بالشعر بعد النثر فتظهر عليه الكآبة ويحاول بعض الجن أن يصلح بينهما فيلج ابن شهيد ويزعم أن ابن الإفليلي يتعقبه كثيرا ويجعله موضعا للتندر في مجالس الطلب. [7]

---

[1]- ينظر ،المرجع السابق ، ص 13

[2]- المخضر: وهو قضين كان الأمير يأخذه بيده ، يسر به .

[3]- مرق ، الفضة

[4]- تردي: تهلك عطشا

[5]- يصدع ، يشق

[6]- فوزي عيسى ، المرجع نفسه ، ص 13

[7]- بتصرف ، يوسف عيد، المرجع نفسه ، ص 533

وأخيرا يقول له صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد أنهما في حيرة من أمره، أيعدانه شاعرا أم خطيبا ؟ ثم يجيزانه بأنه شاعر خطيب ، ومع نيله هذه الشهادة بامتياز تنتهي مغامرة أبي عامر مع توابع الخطباء ليبدأ في مغامرة أخرى تختلف عن سابقاتها.

الجزء الثالث: نقاد الجن

يستمر ابن شهيد في زيارته للجن، ولكن هذه المرة يتعرف على نقادهم ، فيقول : " وحضرت أنا أيضا وزهير مجلسا من مجالس الجن، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الأخذ ومن قصَّر [1].

لقد تعرف ابن شهيد في هذه المرحلة على مجموعة من نقاد الجن ، ومن بينهم الناقد شمردل السحابي الذي أباح على الشعراء الأخذ على بعضهم البعض شرط أن تكون هناك زيادة في المعنى لهذا فقد احتكم هذا الناقد للنابغة عندما عرضت عليه مجموعة من الأشعار في المدح ، وصفه الطير قائلا: " كلهم قصر على النابغة لأنه زاد في المعنى،ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر" [2] ثم يتعرف بعد هذا على ناقد آخر اسمه فاتك بن الصقعب ، فراح يعلمه كيف يسرق الشعر دون أن يفتضح أمره قائلا له: " إن اعتمدت معنى سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه ، وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن ، بتنشيط طبيعتك ، وتقوى منتك" [3] وبعد استيعاب ابن شهيد نصيحة فاتك بن الصقعب يذهب يذهب لتطبيقها مثلما يطبق التلميذ نصائح أستاذه ، فيستعرض عليه مجموعة من الإشعار إلى اخذ عنها، وغير فيها، ومن ذلك قول المتنبي:

أأخلع المجد عن كتفي وأطلبه   وأترك الغيث في عمدي وانتجع [4]

فقال ابن شهيد بأخذ من هذا البيت والتغيير فيه حتى لا يفتضح أمره ، فقال:

وَمِنْ قُبَةٍ لاَ يدركُ الطَرفُ رَأسَهَا   تَزَل بِهَا ريحُ الصِبَا فَتحــدَرُ

إِذَا زاحمت مِنهَا المحَارِمَ صُوبَت   هَويَا علَى بعد المَدَى، وهي تَجأَرُ [1]

[1]- فوزي عيسى، المرجع نفسه ، ص 25

[2]- المرجع نفسه ، ص 26

[3]- المرجع نفسه ، ص 535

[4]- المرجع السابق ، ص 28

ثمَّ يظهر لابن شهيد جن آخر فيطلب منه قول الشعر فلما يفعل ابن شهيد ويجيد ذلك ، يعجب هذا الجني منه ومن عراقته في الكلام، ثم يقل ويضمحل حتى يصبح كالخنساء تداس بالأرجل.

فيسأل ابن شهيد عن هذا الجني فيجيبه زهير قائلا: " إنه فرعون بن والجون" [2] وهو صاحب كبير منهم وما أن يسمع ابن شهيد اسم هذا الجني حتى يأخذ في الاستعادة بالله من الشيطان الرجيم ومن النار [3]

وبهذا تنتهي رحلة ابن شهيد مع نقاد الجن ليزور بعدها قوما آخرين يجري معهم محاورته الأدبية كما فعل سابقيهم.

الجزء الرابع: حيوان الجن

يزور ابن شهيد في هذا الجزء حيوان الجن ، فيخبرنا أنه كان يمشي في أحد الأيام مع زهير بأرض الجن،فشارفا على أرض كثيرة العشب ،بها بركة ماء وفيها مجموعة من حيوان الجن،وبغالهم يتنازعون حول شعرين لحمار وبغل من عشاقهم ، فإذا ببغلة تأتي إلى ابن شهيد وتطلب منه أن يحكم في هذين الشعرين ، فيجيبهما هو قائلا: حتى أسمع [4]

وبهذا تسمعه هذه البغلة شعر البغل الذي يقول متغزلا بمحبوبته:

عَلَى كُلِ صَبّ من هواهِ دَليلُ سَقامٌ على حَرِ الهَوَى ونحُولُ

وَمَازَالَ هذَا الحَب داءًا مبْرَحًا إِذَا مَا أعتَلَى بَغْلاً فَلَيسَ يَزُولُ [5]

ثم تسمعه شعر دكين الحمار الذي يقول هو الآخر متغزلا:

كَلفتُ بإلفي مُنْذُ عِشرِينَ حِجَةً يَجُولُ هَوَاهَا في الحَشَا ويَعيثُ

وَمَالِي من بَرَحِ الصِيَانَة مُخْلِصُ وَلاَلِي مِنْ فَيض السقامِ مَغيثُ. [6]

---

(1)- المرجع نفسه ، ص 29

(2)- يوسف عيد ، المرجع السابق، ص 535

(3)- المرجع نفسه ، ص 535

(4)- ينظر ، فوزي عيسى، المرجع نفسه، ص 16

(5)- يوسف عيد، المرجع نفسه ، ص 536

(6)- يوسف عيد، المرجع نفسه ، ص 536

وبعدما يستمع ابن شهيد لهذين الشعرين يحتكم في الأخير للبغل، دون أن يعزز حكمه النقدي بحجج.

ثم تحدث بعد هذا مصادفة عجيبة لابن شهيد، إذ يتبين له أن البغلة التي طلبت منه التحكيم في أول الأمر بين الشعريين السابقين ما هي إلا بغلة أبي عيسى فيفرح بها، ويتذاكر معها أيام الإنس ، فيبكيان معا طويلا على الأحبة ثم تسأله هي عن حال الأحبة الفتيان ، وتنكر الإخوان ، ومن إخوانك من بعدها، فيجيبها قائلا:"شب الغلمان ، وتنكرت الخلان ومن إخواتنا من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة" [1] فتتنفس بغلة أبي عيسى الصعداء وتقول سقاهم الله سبل [2] العهد[3] وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الورد ، بحرمة الأدب ،إما ما أقرأتهم مني السلام" [4] وقد كان في البركة بجانب هذا الاجتماع" إوزة بيضاء ، شهلاء في مثل جثمان النعامة ، كأنما ذر عليها الكافور أو ليست غلالة من مقش الحرير... في ظهرها صبًّا ، تثني سالفتها [5] وتكسر حدقتها ، وتلولب ممدوحتها فترى الحسن المستعار منها والشكل المأخوذ عنها" [6]

فهذه فكاهة من مبتكرات ابن شهيد تدل على فهمه لعالم الطير كما دلت في فكاهتة الأخرى حول البغلة.

في هذه الرحلة الخيالية لابن شهيد أراد يجعلها وسيلة لإثبات موهبته الشعرية والنثرية والنقدية بالقياس إلى كبار الشعراء والكُتَّاب ولعل في الشكل الذي اصطنعه لرسالته ما يؤكد حرصه على إثبات مهارته وتميزه على معاصريه أو بلدييه من الأدباء.

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 536

[2]- سبل ، مطر

[3]- العهد: أول مطر موسمي

[4]- يوسف عيد، المرجع نفسه ، ص 537

[5]- سالفها ، ناحية مقدم العنق

[6]- المرجع نفسه ، ص 537

المكانة الأدبية لرسالة التوابع والزوابع:

لقد تميزت رسالة "التوابع والزوابع" بجملة من الخصائص التي جعلتها تحظى بمكانة أدبية رفيعة، ولكي نتعرف على هذه المكانة يتوجب علينا أن نلقي نظرة على الخصائص التي تميزت بها هذه الرسالة، فجعلتها محل اهتمام العديد من المتلقين والباحثين.

بعد ما اطلعت على نماذج من رسالة التوابع والزوابع رأيت أن ابن شهيد قد جمع فيها بين الشعر والنقد في قالب نثر ي ، فظهر أحيانا في صورة الشاعر الذي يحسن الشعر ويبدي فيه مهارة فنية رائعة ، تمكنه من معارضة قمم الناقد المشرقي من جاهليين وعباسيين ، أما من جهة أخرى فنجد أن المسائل النقدية قد تعددت في رسالته مثار وكانت مثارجدل بين معاصريه كإشارته إلى اللفظ والمعنى وكلام المحدثين ، كما أنه أبعد ظاهرة الموهبة والبيان عن دائرة التعليم والثقافة وإنما ربطها بالهبة الإلهية أي يهبها الله للإنسان عن فطرة وليس اكتساب من المجتمع وما فيه [1] من مصداق قوله تعالى: **" عَلَّمَ القُرءان الرَّحْمَان (1) خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ (2)"** [2].

---

[1]- بتصرف فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ، ص 22

[2]- سورة الرحمن ، الآيات 1 ، 2

ونظرا لهذا الزحف الإبداعي الهائل الذي احتوته الرسالة فقد راح صاحبها يزرع فيها بذور الطابع الفكاهي حيث كانت الفكاهة غاية من غاياتها، وأبرزها التحكم بخصمه ابن الإفليلي، وتمثل ذلك في اختيار اسم أنف الناقة تهكما بعيب كان في أنفه، لكن سخريته وتهكمه لم تنصب على شخص الإفليلي فحسب بل انتقل إلى عقليته الجامدة التي لا تعترف بالموهبة والإبداع وهذه السخرية توحي إلى الحدة والخشونة وتعكس إحساسا حادا بالغضب والنقمة لا على خصومه فحسب، بل على طائفة بأكملها من المؤدبين المشتغلين باللغة والنحو . [1]

لقد سكب ابن شهيد الطابع الخيالي على رسالته حين جعلها تجرى في ارض الجن باعتبار أن لكل شاعر أو أديب شيطانا يوحي إليه انطلاقا من عقيدة العرب في الجاهلية في تصور الجن في صورة البشر وتخيله قادرا على الخوارق بحيث يطير بحواده.

[1]- المرجع نفسه ، ص 25

خاتمة

خاتمة:

تناولت في هذا البحث الموسوم بـ (فن الترسل في الأدب الأندلسي رسالة التوابع والزوابع نموذجا)،إشكالات تتعلق بفن الرسالة في الأدب الأندلسي وأهم نماذجها ،وتوصلت النتائج التالية:

* تأثر فن الترسل في الأندلس بفن الترسل في المشرق، وخاصة بأسلوب القاضي الفاضل والجاحظ من حيث الاستعانة بالسجع ،وجزالة الأسلوب وصيغ الدعاء والتشبيهات وهذا ما وجدناه جليا في رسالة لسان الدين بن الخطيب، وابن برد الأصغر.

* تميز فن الترسل في الأندلس بمزجه بين الشعر والنثر، وهذا لأن معظم أدباء الأندلس هم من فرسان الشعر مثل ابن زيدون لهذا فقد أحسوا بجمال هذا المزج الفني .

* تطرق الأندلسيون في رسائلهم لمحاسن بلدهم، مع مزج هذا الغرض ببعض الوطنية التي تنم عن إجلال كبير لهذا البلد إلى درجة منحه صفة القداسة.

* حصل الأديب في الأندلس على حرية مكنته من مخاطبة الحكام في رسائله.

* جمعت رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي بين ثلاثة أغراض أدبية هي الشعر ، والنثر والنقد وهذا بغية استدلال صاحبها على مقدرته الفنية وتمسكه بزمام الأدب.

* رسالة التوابع والزوابع هي ضرب من النثر منفرد بنوعه إذ يتمازج فيه الشعر بالنثر في صورة كوميدية مضحكة.

*في الرسالة جانب خيالي حيث تحدث الكاتب على لسان الجن الذين بينو خصائص الأدباء العرب الكبار.

* رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد هي حلقة وصل بين ثقافة المشرق والمغرب.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم ـ رواية ورش .

1 - ابن حزم الأندلسي ،أبو محمد علي بن أحمد ،رسائل ابن حزم الأندلسي ،تحقيق إحسان عباس ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ط 1، 1402-1981

2 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنثر.

3 - أبو الحسين ابن هانئ أبو نواس ، ت ،أحمد عبد المجيد الغزالي، الديوان ، دار نوبليس،ط1، 2004 ـ 2005 ،ج2 .

4 - أبو الفرج قدامى بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1416هــ 1995م.

5 - امرؤالقيس ،شرح عبد الرحمان المصطفاوي ،دار المعرفة بيروت ـ لبنان ،ط 4 ،1429هـ ـ 2008م.

6 - شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط 12

7 - الطاهر محمد توات، أدب الرسائل المغرب العربي في القرن السابع والثامن هجريين، ديوان المطبوعات الجامعية ج1 .

8 - طرفه بن العبد، الديوان، بيروت 1961.

9 - عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

10 - عبد القادر بوبابة، المؤنس في مصادر من تاريخ المغرب والأندلس ،دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع،ط1432، 1هـ /2011، ص53.

11 - علي محمد سلامة ، الأدب العربي في الأندلس تطوره، موضوعاته، وأشهر أعلامه الدار العربية للموسوعات، ط 1989.

12 - فرناندو دي لاجرانجا (الشمنتري) مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، ترجمة وتقديم أبو همام عبد الطيف عبد الحليم، القاهرة ، ط1، 2002.

13 - فوزي عيسى ، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية ، جامعة الإسكندرية ، ط 2002.

14 - محمد رجب النجار ، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية فنونه، مدارسه ، أعلامه ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ط 2 1423 – 2002م

15 - محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في أثار لسان الدين ابن الخطيب المضامين والخصائص الأسلوبية، دار المدار الثقافية، ط1 ،1430هـ- 2009.

16 - مشال عاصي، أميل بديع يعقوب ، المعجم المفضل في اللغة والدب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1987.

17 - مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملاين بيروت ، ص 9 ، 1999.

18 - المقري،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،ت،إحسان عباس ،دار صادر ،بيروت ،ج3.

19 - يوسف عيد ، دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام ، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون طرابلس ، لبنان ، ط2006.

الانترنيت: www.adab.com/literatur/modules.php?

فهرس الموضوعات